

أشهر السير الشعبية
الأميرة
ذات الهمة
و ولدها عبد الوهاب
مكتبة النافذة



الأميرة ذات الهمة

ضبط وتدقيق ومراجعة
عصام يوسف

مكتبة النافذة

الأميرة ذات الهمة

عصام يوسف

الطبعة الأولى : 2013

رقم الإيداع : 2540 / 2013

الترقيم الدولى : 4- 355 – 436-977- 978

الطباعة :

مطبعة طيبة

الناشر

مكتبة النافذة

3 شارع المستشار حسن دياب برج مكة 1

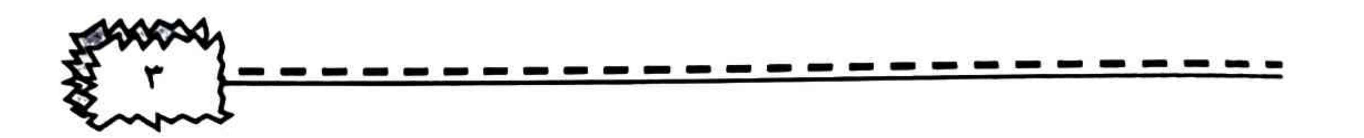
المنشية -ميدان الساعة

-الطالبية -فيصل -الجيزة

تليفون :37241803 -فاكس 37241565

محمول :01223595973 -01007265885

Email:alnafezah @hotmail.com



مقدمة التحقيق

كثيرة هي السير التي تتحدث عن الأبطال في الأدب الشعبي العربي، ومن بين هذه القصص سيرة الأميرة ذات الهمة وولدها عبد الوهاب، وهي من السير التي نقدمها للقراء تتميزة بعدة ميزات منها أنها محكمة البناء، فلا تجد شخصية في السيرة ليس لها دور يبدأ وينتهي بطريقة فنية غاية في الإحكام، بحيث إنك لا تجد أشخاص السيرة على كثرتهم بلا دور في أحداث السيرة.

كما أنها تتميز بتحديد عصر معين لأحداثها وهو بداية حكم عبد الملك بن مروان خليفة الدولة الأموية، وهذا عنصر مهم من عناصر السيرة التي تبين لنا جانبًا من جوانب الحياة السياسية في عصر رواية تلك السيرة.

ومن مميزاتها أيضًا هو غلبة الطابع الأخلاقي على السيرة من أولها إلى آخرها، فالبطل الذي ينتصر هو بطل متدين متصفًا بصفات القوة الجسدية والفروسية، بعكس بعض السير التي تركز على الصفات الجسدية والفروسية للبطل.

عملنا في هذه السيرة:

لكي نجعل القصة شيقة وممتعة للقارئ قمنا بعمل الآتي:

١ - اختصرنا كثيرًا من الأشعار والأحداث التي لا تؤثر في مجرى الأحداث خشية الإطالة.

٢ - قمنا باستبدال بعض الألفاظ الغير مفهومة بأخرى غيرها يناسب قارئ الآن.

٣ - وضع عناوين للقصص الداخلية.

٤ - حذف بعض الألفاظ التي بها سباب.

٥ - قومنا النص - قدر الإمكان- حتى لا نبعد كثيرًا عن النص الأصلي، فتصبح السيرة كأنها من وضعنا وليست السيرة الشعبية.

وفي النهاية نأمل أن تحوز على إعجاب القارئ ، وتكون أضافة إلى الأدب الشعبي العربي.

عصام يوسف

مقدمة السيرة

الحمد لله الذي جعل سير الأولين عبرة الآخرين، وأحاديث الماضين، اعتبارًا للقوم الباقين، الذي فضل دين الإسلام على كل دين لأنه حبل الله المتين، فقال تعالى - وهو أصدق القائلين:

﴿هو اجتباكم .. سماكم المسلمين﴾.

وقال تعالى : ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾.

وقال تعالى: ﴿ومن يبغ غير الإسلام.. الخاسرين﴾.

أما بعد: فقد ذكرت الرواة لهذه السيرة العجيبة، وما فيها من الأحاديث الغريبة، لما رأينا الجهاد حبل الله المتين، ومنزلة المجاهدين عند الله في أعلى عليين، فأحببت أن أجمع سيرة تكون نزهة السامعين، لما فيها من الانتفاع لكل المطالعين، وأنا أسأل الله الإعانة على ترتيب هذا الكلام العظيم، إنه هو السميع العليم.

فأول ما نذكر حديث الحارث وولده جندبة، وبعدهما حديث الأمير الصحصاح، زائر قبر النبي ﷺ زين الملاح سيدنا محمد ﷺ ما أظلم الدجى وأضاء الصباح، ونذكر له ما جرى من الحرب والكفاح، وما يظهر منه من

الأولاد الملاح. والأفعال القباح، وما يبدو منهم من الأفعال الصحاح، وما نقلته عنهم الرواة الفصاح وما شاهدوا منهم من الحرب والطعن في المساء والصباح. وما تم لهم من الجهاد في طاعة رب العباد الملك الفتاح من الخير والصلاح.

وإن من روى هذه السيرة العجيبة وما فيها من الأحاديث المطرفة الغريبة هو

١ - «علي بن موسى المقانبي»

٢ - و«المهذب بن بكر المازني»

٣ - و«صالح الجعفري»

٤ - و«يزيد بن عمار المزني»

٥ - و«عبد الله بن وهب اليماني»

٦ - و«عوف بن فهد الفزاري»

٧ - و«سعد بن مالك التميمي»

٨ - و«أحمد الشمشاطي»

٩ - و«صابر المرعشي»

١٠ - و«نجد بن هشام العامري» قالوا جميعًا - والله أعلم بما غاب عن الأبصار وسبق إلى الظنون والأفكار- : إنه لم يكن في العرب العربا ولا في السادة النجبا من معد بن عدنان ويعرب وقحطان في زمن بني أمية أشد بأسًا ولا أقوى مراسًا ولا أعظم اقتدارًا ولا أجلد صبرًا ولا أسنا جنايًا ولا اسمًا علمًا ولا أفخر ولا أشد حكمًا ولا أشرف عند الأنساب، ولا أقوى عند الطعان

والضـراب من بني كـلاب السـادات الأنجـاب؛ لأن فـيهم الكرم الشـائع، وهم أصحاب الوقائع وليوث المعامع، ولهم الجفان والجوابي وتقصدهم العرب من السهول والروابي ومع هذه الصفة الكاملة لم يكن الملك فيهم ولا الإمارة إليهم، بل كـانت لبني سليم من قبل مـروان بن الهـيثم؛ لأن بني أمـيـة وليت في ذلك الزمـان وكـانت بني كـلاب تفـتـخـر بإطعـام الطعـام واقـتناص الأبطال وإجـابة السؤال، وبذل الأموال.

تفسير المنام!!

قال الراوي: وكان الملك في بني سليم لرجل يقال له «مروان بن الهيثم» وكان له رأي صائب وذكر ثاقب ومكارم ومناقب وقباب ومضارب وخيول وجنائب، وكان ملكًا عظيمًا وجوادًا كريمًا رفيع الجناب مشهورًا عند سائر الأعراب صاحب جاه منيه وجناب رفيع.

وكان توقيع إمارته على العرب من طرف آل مروان والأمير جندبة ما أخذ إمارته إلا بالسيف، وكذلك أبيه الحارث والد الأمير جندبة ولجندبة هذا منشأ عجيب يحير عقل الواله اللبيب لكن بعد الصلاة على النبي الحبيب الذي من صلى عليه ما يخيب.

وكان أبوه الحارث شجاعًا من الشجعان وفارسًا من الفرسان لا يخاف من سطوة الإقبال، ولا يخشى الأسود من الدحال، وكان ظهوره في أيام عبد الملك بن مروان وكان مستقره في أرض اليمن، وكان دأبه الهرب لا يأوي مكان ولا يسكن تحت جدران بل يسكن الأدوية والقفار والبراري والأوعار، وكان صاحب غارات على أحياء العرب ممن دنى منه ومن قرب وكان له زوجة اسمها «الرباب» وكانت ذات حسن وجمال وقد واعتدال.

وكان الحارث قد أغار على بعض أحياء العرب فمسك أبطالهم ونهب أموالهم، ونساءهم، فرأى بينهم صبية فأعجبته وكان اسمها «الرباب» فأخذها خطيفة واختارها لنفسه، وقد هام بحبها فتعلق أبوها بها، وبكى فقال الحارث للرجل: ما يبكيك أيها الشيخ؟

فقال: أبكي إلى أخذك ابنتي بالقهر، ولولا أخذك لها بالغصب ما بكيت، وإن كان لك فيها غرض خذها بالحلال أفضل لك على سنة الله ورسوله لكان ذلك أحسن، وتغتنم الأجر والثواب، والباغي له مصرع.

فلما سمع الحارث ذلك الكلام أطلق الشيخ وابنته وأهل قبيلته، وساق إلى أبيها ألف ناقة، وألف دينار ذهب، وقال: خذ هذا يا عماه مهر ابنتك.

فأحضر أبوها مشايخ قبيلته من وقته وساعته، وزوجه بها.

فدخل الحارث ومضى بها في البر الأقفر فقضى الأمر المقدر أنها حملت منه.

فلما تكامل حملها وبان ثقلها فنامت ذات ليلة من الليالي فرأت في منامها ولذيذ أحلامها كأنها في صحرة من الصحراوات وحولها فسيح البراري المقفرات، وأنها تقدمت إلى تل عالٍ، وقد انكشف ذيلها وخرج من تحتها نار متأججة، ولها ألوان متوهجة فخرجت إلى الأرض فأحرقت جميع ما عليها ما بعد منها وما قرب، ثم بعد ذلك استدارت واستنارت فانتبهت فزعة مرعوقة.

فقال لها الحارث: ما لي أراكِ منزعجة الخاطر؟

فقالت له: من أمر رأيته وهول عاينته! وذكرت له المنام من أوله إلى آخره.

فقال لها: في الغد أمضي إلى كاهن من كهنة العرب وآتيك برجل خبير يفسر لك المنام وتنظري ما يأتي به من الكلام.

قال الراوي: فلما أصبح الله بالصباح وأضاء بنوره ولاح ونصلي على محمد ﷺ سيد الملاح خرج الحارث يريد كاهنًا من الكهان يفسر عليه المنام، وإذا بوفد قد أقبل ومعهم شيخ كبير والقوم يشيرون إليه بالتوقير، فتقدم الحارث إليهم وسلم عليهم، فردوا عليه السلام، وتلقوه بالتحية والإكرام لأجل ما عاينوا على أعطافه من الشجاعة والقوة والبراعة، وقالوا له: هل لك من حاجة فتقضى أو ملمة فتمضى؟

فقال لهم الحارث: أيها السادة لي حاجة إليكم أطلب قضاها، وقد خرجت في طلبها فرأيتكم تشيرون إلى ذلك الشيخ بالتعظيم فعرفت أنه فاهم عظيم حكيم.

فأقبل الحارث إليه وصافحه بالسلام، ثم إنه قص عليه المنام الذي رأته زوجته، وجلس يسمع ما يبديه له من حكمته.

فقال الشيخ للحارث: إني أرى أمرك عجيبًا، وسوف يكون حديثك أمرًا غريبًا، فإن وافق الزجر وصدق الأمر فإني أرى في الأمم السالفة عن الكتب التي نقلوها الأمم العارفة أن هذه المرأة تلد مولودًا له شأن وأي شأن، ولم يكن مثله في هذا الزمان، ويخرج من صلبه ولد عظيم أعظم منه وأدين منه وأتقى وأحسن إلا خوفي على والدته من الموت عند ظهوره إلى دار الدنيا والسلام.

ولما سمع الحارث ما قال الشيخ فرح واستبشر وقال: بعد أن يعيش هو

ويبقى فإني وأمه قد رأينا كثيرًا والموت على الغني والفقير.

ثم إن الحارث أخذ اشيخ وأتى به إلى حلته ودله به على زوجته وأسمعها خطابه وحكمته وأمرها أن تقص عليه ما رأت.

فأجابها الشيخ يفسر لها منامها على نظم شعرها وهو يقول:

أخـــبـــرك بتـــعـــبـــيـــر المنام

ومـــا شـــفـــتـــيـــه في جنح الظلام

يجي مـــولود منك كـــثـــيـــر حـــرب

لـــه ذكـــــــــــر يـدوم عـلـى الـدوام

ويطلع فـــارسًـــا بطلاً شـــجـــاعًـــا

يثـــيـــر الحـــرب في جـــمـــيع الأنام

ويـربـى يتـــمًـــا بغـــيـــر أب

ولا أم ويـطـلـع بـحـــــــــر طـامـي

ويـأتـي مـنـه صنديدًا مـــهـــابًا

لأهل الكفـــر يضـــرب بالحـــسام

وهـــذا دل عـــنـــدي فـــي عـــلـــومـــي

شـــرحـــتـــه لك بتـــفـــســـيـــر المنام

قال الراوي: فقال له الحارث: يا دهقان من حيث بشرتنا بأن يأتينا هذا المولود السعيد ونسلنا يزيد فما علينا من أنفسنا متنا أو عشنا.

ثم إن الحارث أنعم على الشيخ الدهقان نعمة عظيمة جزيلة، وأيضًا زوجته خلعت عليه خلعة سنية، ويكون في أوله هذا ما كتبه الحارث بن عامر بن خالد بن صعصعة بن كلاب وهو لاحق بنسبه وكتب الشيخ ما قالت له عليه وطواه وجعله في قصبة من الفضة وسلمه إلى الرباب وقال لها: إذا وضعتي هذا المولود فعلقيه عليه فأحسنت إليه وراح إلى حال سبيله.

ولم يلبث الحارث بعد ذلك إلا أيام قلائل ثم مرض مرض الموت فلم يمض عليه إلا شيء يسير حتى مات وقضى نحبه ولحق بربه.

وكان للحارث ابنة عم اسمها «حسنا» وكان الحارث يحبها فلما أخذ الرباب عليها التهى عنها بها، فلما مات الحارث كانت ابنة عمه حسنا حاملاً منه فخافت على نفسها من الأعداء فارتحلت من تلك الحلة إلى حلة غيرها، وأقامت بها وكانت العرب على أيام الحارث تخاف من شره وعظيم شجاعته.

وكانت العرب في ذلك الزمان بين قاتل ومقتول، وناكل ومنكول، وكانت العرب تعظم الحارث لأجل شجاعته وقوته وبراعته؛ لأنه قهر العربان وأباد الشجعان ودخلت تحت حكمه وأطاعته منهم قبائل كثيرة، فلما مات اختلفوا من بعده وفرح أكثرهم بموته وقد أرادوا قبائل العربان أن يشنوا الغارات على حيه وأهله وحريمه وعائلته وينهبوا أمواله، ويهتكلوا عياله.

فلما نظرت الرباب إلى ذلك الهوان بعد العز وعظيم الشأن ، وكانت عند

موته قد حزنت عليه حزنًا طويلاً، وبكت بكاء شديدًا، وتذكرت الحارث وطيب تلك الأوقات وشجاعته، ورأت أن العرب قد اشتوروا على سلبها ونهب أموالها، وكل واحد قد طلبها فتذكرت الحارث وبكت عليه .

* * *

عشق العبد لسيدته !!

ثم إنها دعت بغلام لها بعد ما اختلط الظلام ونامت عيون الأنام، وتجلى الملك العلام، وكانت عبيدها لما نظرت إلى الحارث قد أخذ كل واحد منهم جارية من الجوار، وطلب القفار خوفًا من الفتن والشر، فأقبلت على غلامها وكان اسمه «سلام» وكان قد ترى عندها في العز والإنعام.

وكانت العبيد كلها قد هربوا الجوار والنياق والأغنام وما فضل عندها منهم غير هذا العبد «سلام»، وما أقعده عندها إلا المحبة لها وعشقه فيها فقالت له: يا سلام عندما دخل الظلام أفيك شيء من الخير؟

فقال لها: وما تريدين من الخير فإن الخير كله عندي، وفي الخير يا بنت الكرام!

فقالت له: تأخذني وتسير تحت الليل حتى لا يلحقنا شيء من الخيل، وتوصلني إلى حلتي وقومي وأهلي أو إلى بعض أحياء العرب نلتجئ إليهم، ونسير مختفين ومتنكرين فإني أخشى على روحي من الطلب وأخاف أن أذل بعد العز وأنت تعلم أن مولاك الحارث كيف كان يكره العرب، وأنا قد أصبحت فريدة وأخاف أن أغصب على ما لا أريد، ويشتفي في القريب والبعيد، وإن

الذي قد عزمت عليه من الهرب هو الرأي السديد والله لا خوفي على مال ولا على رجال ولا خوفي إلا واحد من ملوك العرب يغصبني على نفسي، ويريد مني ما تريد الرجال من النساء وأنا أحلف بالله الواحد القهار والملك الجبار لا رجعت أطاوع أحدًا من الرجال لا من الأخيار ولا من ا لأشرار.

فقال: يا سيدتاه الأمر إليك وإنا لك وبين يديك.

ثم إنه ركب وركبت وساروا تحت الليل وتركوا أكثر الأموال.

فلما خرج بها من الحي عرج عن الطريق وهي لا تعلم، وقصد بها قرب حي من أحياء العرب، وكان أمير ذلك الحي يقال له «دارم» فلما قرب بها الحي عرج عن الطريق وقد حدثته نفسه بوصالها لما رأى حسنها وجمالها، وقد وسوس له الشيطان أن يفعل بها القبيح في تلك الساعة فراودها عن نفسها، وطلب منها ما تطلب الرجال من النساء فقال له: ويلك يا عبد يا زنيم! اترك عنك هذا الفعل الذميم، واستعذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، واحفظ التربية والعيش والملح ولا تهتك ستري ولا تضيع بين العرب قدري، وتتركني عار.

فقال لها العبد: والله لا بد لي من ذلك لأنني في محبتك حالك!

فصرخت عليه وقالت له: يا ويلك يا أخس العبيد أنا ما رضيت بالرجال الصناديد نكاحًا فكيف أرضى بالعبيد سفاحًا، وإني وقد خشيت على نفسي من هذا الأمر نكاحًا فكيف يكون سفاحًا.

فقال لها: لا بد لي منك وقد زين له الشيطان وجه المحال فصاحت عليه.

وقالت له: تنح عني فإنك لن تنال مني ما تريد ثم إن الرباب أنشدت وجعلت تقول هذا الأبيات صلوا على سيدنا محمد صاحب المعجزات.

ثم إنها بكت وقالت له: ويلك وبلغ من قدرك أن تخاطبني بهذا الخطاب ارجع عن هذا واذكر التربية.

فقال لها العبد: لا تطلبي الخطاب والعتاب ثم إنه تقدم عليها ومد يده إليها وأراد الوثوب عليها، ودفعها بين ثدييها راحت على صدرها، وأراد أن يركب على صدرها فمن شدة الدفعة وما لحقها من الفجعة دفق عليها الدم ولحقها الطلق بإذن خالق الخلق.

فلما رأى العبد منها ذلك تأخر عنها وقال: ما هذا الدم الذي دفق عليك؟

فقالت له: أما علمت أنني حامل من مولاك الحارث ومن شدة ما دفعتني هرق عليَّ الدم وانفتح ظهري.

فلما سمع «سلام» منها ذلك الكلام أخذها وجرجرها حتى أتى بها إلى نهر ماء كان هناك وقال لها: اغتسلي من ذلك الدم واقطعي فرطه، وبعد ذلك واصليني.

ثم إن العبد أبعد عنها، وصار يفكر في ذلك الأمر.

وأما الرباب فإنها لما جلست بجانب النهر وهي تبكي فقوي الطلق عليها فتمخضت وتوجعت، وتمنت الموت من شدة ما عاينت، ومن بعد ساعة وضعت ولدًا ذكرًا كأنه فلقة قمر، وله ذكر يذكر، فقطعت سرته ولفته في قطعة من إزارها، وقد قمطته بخمارها.

ثم إنها بعد ذلك علقت عليه القصبة الفضلة التي فيها الورقة المكتوبة بخط الشيخ الدهقان بحسبه ونسبه، ومن أي العرب قومه وأهله، ثم إنها أخذته في حجرها وألقمته ثديها ففتح عينيه وصارت تنظر إليه ثم قالت له : أين عينين أبيك الحارث ينظر إليك، ولكن هذا حكم الرب القديم قد كتب وتسطر عليك.

* * *

وبقي المولود وحيداً

قال نجد بن هشام: هذا ما كان من الرباب، وما جرى لها من الأسباب، وأما ما كان من العبد سلام المرتاب فإنه أقام ينتظر مولاته أن تعود إليه بعد أن تغتسل من ذلك الدم ليقضي منها وطرًا، فطال عليه الانتظار، وهو يقول الله يا سلام لقد بلغت ما كنت تتمناه وقد سمح لك الزمان بوصلها وبالقرب منها.

ولما أن طال به المطال أتى إليها لينظر ما الذي أشغلها عنه إلا أنه لما أن قرب منها فرأى في حجرها طفل صغير وهي ترضعه فقال لها: إيش هذا الذي ترضعيه وهو في حجرك؟

فقالت له: اعلم يا سلام أن هذا ولد سيدك الحارث الذي كان في بطني وضعته.

فقال لها وقد أيس من وصالها: ومن قال لك أن تضعيه في هذا الوقت، وأنا منتظر وصلك، ولِمَ لمْ تصبري حتى أفرغ من حاجتي؟

فقالت له: إن هذا الأمر ما هو بخاطري!

فقال لها: إنك تكذبين بل أنت فعلت هذا بخاطرك!

فقالت له: وكيف ذلك؟!

فقال لها: إن هذا الرجل الذي خلفك يقول إنك عصرت بطنك وأنزلتيه بالغصب.

فقالت له: إنه يكذب لأن هذا قدرة باهرة، وتعجز عنها جميع البشر.

فقال لها: ما يكذب إلا أنت لأنك ما فعلت هذا إلا حتى لا أقربك، ولا أتمتع بك، ولا أنال منك غرض وإن الرجل ما يكذب وما هو إلا صادق.

فقالت له: وأين الرجل؟

فقال لها: ها هو خلفك فالتفتت الرباب لتنظر إلى ذلك الرجل حتى توبخه، وقد ظنت أن قوله حق.

فما تركها العبد سلام تلتفت حتى إنه جذب الحسام وضربها على الهام طير رأسها إلى قدام فوقعت إلى الأرض على جنبها والولد في حضنها والثدي في فمه.

ولما إن قتلت أخذ العبد ما كان معها من المال وتركها على الرمال، وسار في تلك البراري والقفار، وقد نجا بنفسه وقد أتى إلى بعض الجبال والأماكن وأقام إلى أن يأتي ذكره في مكانه إن شاء الله تعالى إذا انتشى ذلك المولود.

* * *

الطير يظل المولود!!

فهذا ما كان من العبد والرباب وما جرى لهما وأما ما كان من ذلك المكان الذي ماتت فيه الرباب فهو بقرب وادي ولذلك الوادي أمير يقال له الأمير «دارم» وأنه كان بالقضاء المقدر والأمر المدبر أن زوجة الأمير دارم صاحب تلك الحلة كانت حاملاً فوضعت في تلك الأيام ولد ومات فدفن فصعب ذلك على الأمير دارم وقد حزن عليه، وأصبح الأمير دارم في أشد ما يكون من الاحتراق ولم يجد شيئًا يفرج به كربه فأشاروا عليه أهل الحلة أن يخرج إلى البر والفضا، وأن يتسلى بالصيد والقنص؛ ليتفرج ما بقلبه من الهم والغم والنغص.

ولما سمع قول بني عمه خرج يفرج ما به من همه ويكشف عنه غمه فساروا معه جماعة من بني عمه وبعض عشيرته، وسار قليل فنفرت منه إعانة من الوحش كانوا مجتمعين في ذلك المكان.

فلما نظروا إلى الفرسان تفرقوا في الوديان فجد الأمير دارم خلف فرقة منهم في الطلب، ولم يزل خلفهم سائرًا وهم قدامه هاربين حتى ساقه القضاء والقدر إلى ذلك الغدير فوجد الرباب وهي في تلك البرية ملقحة مرمية، وهي مقتولة وذلك المولود نائم جنبها وهو مثل القمر وهو يرضع من ثديها.

وكان الحر قد هجر فارسل الله إلى ذلك الغلام طيرًا يسمى الجندب فجعل يظل على الصغير من ذلك الحر والهجير!

فلما أن رأى الأمير دارم إلى ذلك التفت إلى بعض من كان معه من مشايخ الحلة وقال له : يا ابن العم إن لم تكشف لي عن خبر هذه الصبية وسبب قتلها وإلا رميت رأسك مثلها.

فقال له الشيخ وكان وزيره ومدبر أمره ومشيره: يا ملك ما يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى، هو أنا كنت معها لما قتلت! أو كان لي بها معرفة لكن زم لي وأنا أخبرك بما جرى لها على التخمين!

فقال له الملك: أعطيتك الزمام فقل ما أنت قائل من المقال حتى أسمع ما تقول.

فقال له الوزير: حيث إنك قد أعطيتني الزمام اسمع مني الكلام يا ملك أقول و الله أعلم أن هذه بنت ملك من ملوك العرب الثقال، فكبرت عنده فطلبها ملك أو أمير ما رضي به أن يزوجها له فكبرت إلى أن بلغت من العمر فأرميت عينها على أحد من بعض خدمهم فاختلى بها وقد أزال بكارتها فعلقت منه بهذا الغلام، فعلموا بها أهلها وقد شاع خبرها فأخذوها وقد أتوا بها إلى هذا المكان، وقتلوها لما أن وضعته وتركوه بجنبها ومضوا عنها، وخلوها ملقحة كما ترى، وهذا ما عندي وما دخل في ذهني وهو على غالب ظني والسلام.

فلما سمع الأمير دارم من وزيره ذلك المقال قال له: يا كلب العرب إيش هذا الكلام؟ أيقال في حق مثل هذه ذلك المقال، فوالله لولا أنني أعطيتك الزمام

لوشيحتك بهذا الحسام، يا ويلك لو كانت زنت به ما كانت نائمة ترضعه وهي قتيلة ميتة، وما كان الله قيض هذا الطير يظله، لكن اسمع مني ما أقول، ثم إن الأمير دارم أشار إلى وزيره وهو يقول هذه الأبيات:

ليت شـعـري هل بليـتي بعـار
أو رمـاك الزمـان بالنكبـات
أو عـضـبـتي لفـاحـشـة مـا رضـيت
حـتى صـرت قـتـيلة الفلوات
سـيـمـتك سـيـمـة الملوك وعندي
صح أنك من النسـاء الخـيـرات
لولا أنك من النسـاء الحـرائر
مـا رضـعـتي الغـلام بعـد الممـات
أسـأل الله أن يجـازيه بفـعله
ويلقـيـه أيشم النائبـات
وأسـأل الله إن يكن فـيه خـيرًا
يأخـذ الثـأر من جـمـيع العـداة

ثم أتوا على جانب النهر، ونزلوا ثم إن الأمير دارم أرسل إلى الديار أحد الرجال، وأمره أن يأتي بغاسلة وإيزار فسار الرجل وما غاب غير قليل وعاد

ومعه الغاسلة والكفن والحنوط، وجميع ما يحتاج إليه الميت.

ولما أن حضرت الغاسلة أرسل الأمير فأتوا بخيمة فنصبوها بجانب النهر وأدخلوا فيها تلك الصبية المقتولة، وتقدم الغاسلة وكانت قد أتت معها امرأتين ليعينوها على غسل الميتة، فغسلوها وأحسنوا غسلها.

ولما فرغوا من الغسل أدرجوها في الأكفان وكان الأمير دارم أمر بحفر قبر فحفر لها الرجال قبرًا واسعًا.

ولما انقضى شغلها قام الأمير دارم وتوضأ وهو الرجال الذين معه من ذلك النهر، وصلوا عليها.

ولما فرغوا من الصلاة قلع الأمير دارم أثوابه ونزل إلى القبر بنفسه ولحدها بيده وطلع وقد واراها التراب.

ولما أن فرغوا منها سارت كمن له سنين وأيام رحمة الله عليها وعلى أموات المسلمين.

* * *

جندبة ومعه الحرز!!

فهذا ما كان من أمر الصبية وما جرى لها.

وأما ما كان من أمر الأمير دارم فإن لما فرغ من ذلك أخذ المولود وسار به إلى الديار.

ولما إن وصل إلى الحي دخل إلى بيته فلقيته زوجته الأميرة «حسنا» وقد سألته عن أمر الغاسلة وما هو السبب في أخذها وما الذي رأيته في البر؟

فأعاد عليها القصة من أولها إلى آخرها فقالت له: وأين الغلام الذي كان معها وأين الصيد الذي أتيت به من صيد الوحوش؟

فقال لها : يا بنت العم اعلمي أني قد خرجت أن أتصيد لك وحش بر فجئت لك بتحفة وهو من الإنس، ثم إنه مد يده إليها وقد أعطاها الطفل وأعطاها الحرز الذي كان عليه،

وقال لها: خذي هذا الحرز وعلقيه على رأسه.

فأخذته منه وعلقته على رأس المولود وتوكلت في أمره على الملك الودود.

وقال لها زوجها الأمير دارم: أحس أن هذا ولدك الذي ولدتيه ومات فربيه

فلعل أن ينالنا منه الأجر والثواب،

فعارضتها عجوز وكان اسمها «شوم الزمان» وقالت لها : أعيذك بالرحيم الرحمن كيف أنك تربي من لا تعرفين له أصل ولا أم ولا أب، فلعله يكون من أولاد العواهر، وما زالت معها حتى نفرتها منه.

ولما حصل لها ذلك صبرت حتى دخل عليها زوجها من داخل الخباء بعد أن انفض مجلسه مع رجاله فأخبرته وقالته له: كيف نربي أولاد العواهر ولا تساعدنا على ذلك أهل المفاخر؟

فقال لها: اسمعي مني وربيه.

ثم قال لها: يا أميرة حسنا خذي لك مني في كل شهر عشر دنانير ذهب.

ففرحت بهذا المقال، وقد أخذته بقبول وربته تربية عالية وقالت له: ما نسميه؟

فقال لها : جندبة؛ لأني قد وجدت عند رأسه جندبة.

فأخذت الولد في حجرها وألقمته ثديها فشرب حتى روي وألقى الله -تعالى- محبته في قلبها وفي قلب الأمير دارم، وتربى في الأحضان وحجور الجوار إلى أن انتشى وترعرع ومشى، وما زال به أيام وشهور وسنين إلى أن بقي له من العمر سبع سنين ذهبوا به إلى الكتاب فقرأ وعاد، وقد بلغ حده فركب الخيل وخاض الليل، وتعلم الفروسية، وصار يقاوم سائر الأبطال الذين في الحلة، ويعمل معهم سائر الأعمال.



وما زال كذلك إلى أن بقي من الفرسان الثقال، وقد طلع فارسًا لا يطاق وعلقمًا مر المذاق، ولا بقي له ثاني في المحلة وصار آفة من الآفات وبلية من البليات.

* * *

الشمطاء تأسر الأمير دارم وأولاده

وأما ما كان من الأمير دارم فإنه خرج في بعض الأيام إلى الكسب والمعاش، كما جرت عادة العربان، ومعه جماعة من الفرسان فوقع في أرض امرأة يقال لها الشمطاء بنت الملك الضحاك، وكانت من الشجعان، وتعقد من الأقران وتخاف منها الأبطال في حومل الميدان، وتحسب حسابها الرجال والفرسان.

وكان لها مواشٍ كثيرة، ونعم غزيرة، ولما أن خرج الأمير دارم من حيه فلم يقع بالأمرالمقدر إلا في الحي الذي للشمطاء فساق مالها، وهو لا يعلم بحالها، وكان معه مائة فارس من قومه.

ولما أن ساق المال انقام عليه النفير وقد أعلموا الشمطاء بذاك الأمر الخطير فركبت وسارت إليه.

ولما أن قربت منه حملت عليه وعلى من معه من الفرسان فقتلت منهم البعض وبعدها قصدته وحملت عليه، فلما رآها الأمير دارم عرفها، وعلم أن ما بقي له مناص، فالتقاها إلا أنها منعته وجادلته وراوغته، وقاتلته القتال الشديد وطعنته بعقب الرمح أقلبته على وجه الأرض، ونزلت إليه كتفته بفاضل عمامته، وضربت جواده فخرج إلى الفضاء، وهرب باقي رجاله من بين يديها،

وعادوا راجعين إلى الديار وهم ينادون بالويل والدمار.

وكان للأمير دارم عبد فلما أسر مولاه أخذ الحصان، وهو شارد في البرد وعاد به إلى الحي، وكان أهل الحي قد علموا من من المنهزمين فارتج الحي.

فلما أقبل العبد وأعلمهم بأسر مولاه الأمير دارم وصح الخبر، وكان له عشرة أولاد ذكورًا أبطالاً شدادًا، ولهم بصيرة في الحرب، ومواقع الطعن والضرب فقال لهم قومهم: كيف العمل في هذه النوبة العظيمة مع هذه النذلة اللئيمة؟ وكيف يكون خلاص الأمير دارم من يدها؟

فقال أولاده: نحن بذلك أخبر، وبأخذ ثأرنا أبصر.

وكان جندبة -في تلك الأيام- غائب عن الحي في الجبال وفي المراعي.

ثم إن أولاده العشرة لبسوا دروعهم وركبوا على خيولهم، واعتقلوا برماحهم، وخرجوا من حيهم، وصاروا إلى الشمطاء مبادرين ولحماها قاصدين، ولحربها ناوين.

ولم يزالوا سائرين إلى أن وصلوا إلى حماها، ولما رأتهم ثارت كأنها اللبوءة المصممة وكانت لا تطاق، مرة المذاق، بعيدة اللحاق، فلما عرفت أولاد الأمير دارم لبست لامة حربها.

ثم إنها جردت الرمح وهي مثل النمر الحردان والأسد الغضبان إلى أن صارت في وسط الميدان ونادت يا أولاد الأمير دارم ها أنا قد خرجت إليكم فانصفوني في الميدان، ودونكم الضرب والطعان، فعند ذلك برز إليها الولد الأكبر وهو مثل الأسد الغضنفر، وسار إلى أن قاربها في الميدان.

ثم حملت عليه وقومت سنانها إليه، وضايقته، وخدعته وقالت له: رجعتم إلى الغدر والمكر، فالله يرزقني عليكم النصر.

فلما سمع الغلام كلامها ظن أن بعض أخوته قد حمل كي يساعده، فالتفت إلى نحوه فاغتنمت الغفلة منه وأدركته وهو في دهشة، ومدت يدها إليه وأخذته أسيرًا وبطرف عمامته ربطته ذليلاً حقيرًا.

فلما رأوا أخوته ذلك لم يعطوا تهاون، ولا صبر وأرادوا أن يحملوها، وإذا بأربعين عبد قد أقبلوا إليها مثل الجان، فقالوا لبعضهم: إن نحن حملنا عليها حملت علينا العبيد، وما ننال منها ما نريد.

ثم إن أخاهم الثاني حمل عليها فلم يدور معها غير دورة واحدة حتى أخذته وإلى أخيه أقرنته، وحملت على بقيتهم فأسرتهم واحدًا بعد واحد وجعلتهم في الأصفاد.

وأتى الخبر إلى أمهم فصاحت ولولت، وبكت، وعددت، وصاحت في أهل الحي فلم يجبها أحد إلى قتال الشمطاء، فداومت البكاء والعويل إلى أن أحرمت أهل الحي المنام.

ولما أن رأت أن أحدًا لم ينجدها منهم، وكان جندبة غائبًا عن الحي، وقد كبر وانتشا، وبلغ مبالغ الرجال.

وإذا به قد أقبل من المرعى، وكان يقيم في الفلا الشهر والشهرين، ولا يحضر إلى الحي إلا في بعض الأحيان، فلما حضر ورأى أمه الأميرة «حسنا» التي قد ربته على تلك الحالة، وسمع منها، فانزعج وسألها عن هذا الحال

الذي هي فيه فأخبرته بأمر أبيه وأخوته وقعود أهل الحي عن نصرته.

ولما سمع جندبة من أمه ذلك الخبر قال: وذمة العرب لا سار إليها غيري ولا يخلص أبي وأخوتي سواي.

فقالت له: اعلم يا بني أن العجوز لا يصلى لها بنار، ولا يضام لها جار، ثم زجرته فلم ينزجر، وردته فلم يرتدد.

ثم عمد إلى حصان أشقر عالٍ مضمر، وسيف أبتر، ورمح أسمر، وسار إلى أن وصل إلى حي الشمطاء فرأته، ورأت الفروسية تلوح من بين عينيه والشجاعة تشهد له لا عليه، فقفزت على حصان مثل السرحان أو الكسر من العقبان، قليل لحم الخدين، سالم القوائم، وخرجت وهي طالبة إليه وهي تمشي على سهل وصاحت عليه: من أنت أيها الساعي إلى حتفه القادم إلى منيته؟ إن كنت ضالاً أرشدناك! أو ضيفًا أكرمناك!

فقال لها جندبة: لا تحسبيني كمن نزل بديارك، وحل به عذابك، أنا رجل أحوش الجنود، جئت أخرب هذا الوادي، وقتلك شفي فؤادي.

فقالت له: ويلك أنا أنظر إلى صغر سنك، وأرحم قرب عهدك وأنت تخاطبني بهذا الخطاب!

ثم إنها حملت عليه ووصمت بالطعنة إليه فوجدته ثابتًا غير مكترث بها، وقد صبر لحملها ساعة زمانية إلى أن تعالى النهار، وقد حمى الحر وتوقد البر، وكان تبع الشمطاء أربعين فارسًا من قومها قد تعودوا قتال الأبطال، ونهب الأموال.

فلما رآها جندبة حمل إليها وهجم عليها، وضايقها حتى سد طائقها وطعنها في صدرها طلع الرمح يلمع من ظهرها فانقلبت قتيلة في الأرض جديلة.

ولما رأوا قومها إلى ذلك فحملوا على جندبة الأربعين حملة رجل واحد فتلقاهم مثل ما تلقى الأرض العطشى أوائل المطر، وثبت لهم ثبات الأسود، وصاح بهم : يا ويلكم! ما هذا الرأي وما هذه الأعمال؟ أما أنتم رجال أصحاب عقول، وإنني والله ما قتلت الشمطاء إلا على شأنكم لأنكم أسود وشجعان، وأنتم تخدمون امرأة عجوز لا قدر لها، ولا شأن، وإني ما فعلت بها هذه الفعال إلا لأجل فعالها بالرجال هذه الفعال، ولا تركت لأحد من الأمراء رأس تنشال، وإن كان قتالكم من أجل المال فوالله لم آخذ منه عقال.

فلما سمعوا كلامه بعدما عاينوا فعاله نظر بعضهم إلى بعض، وقالوا: والله الصواب الذي قاله.

ثم إنهم امتثلوا قوله، وقالوا: والله العظيم إن هذا الأمير كلامه صحيح، والتمسوا عليه وقالوا له: افعل ما تريد، ونحن لك من جملة العبيد.

فلما سمعوا منه ذلك المقال وعاينوا كرمه بين الرجال وساروا به إلى أن وصلوا إلى حصن الشمطاء، ودخلوا إلى داخل الحصن وقد أحضروا له جميع ما كان للشمطاء من المال، فقسمه عليهم، ولم يأخذ منه عقال وبعد ذلك قام الأمير جندبة إلى المكان الذي فيه الأمير دارم وخلصه مما هو فيه من الأغلال والقيود، وخلص أولاده مما كانوا فيه من النكال، وخرج بهم من الحصن

وأركبهم على الخيول، ورجعوا إلى الأحياء بالمال والنوال والنوق والجمال والخلق النفيسة.

وما لازوا حتى التقوا بالأهل والعيال، وقد شاع ذلك الخبر عن الأمير جندبة، وأنه قد قتل الشمطاء ورد دارم وأولاده إلى الأحياء فخرجوا إلى لقاءه أهل الحي الأكابر منهم والأصاغر، وسلموا عنيه وخدموه وأكرموه، وطلع اسمه وفشا أمره، وذكره فهابته الناس، وأعجبته نفسه وتكبر على أبناء جنسه، وسار يركب الليل والنهار والخيل ويعلم الصبيان الكر والفر والطعان وارتفع قدره والشأن، وقد مال إليه جماعة من أهل الحلة وأحبوه ، وصار يسير ويغير وذكر في المحافل وعند جميع الأبطال والشجعان في القبائل لأجل ما بان له من الفعائل.



كيف أعود عنك وأدعك؟

فهذا ما كان من الأمير جندبة وما بان منه وأما ما كان من الأمير دارم فإنه لما رأى من جندبة تلك الفعال، ورآه قد شاع ذكره بين القبائل والأبطال لحقه من ذلك الغيرة والحسد، وقد حل به الكمد وأصابه ما أمرض منه الجسد، وقال: والله العظيم إن هذا الولد لا بد ما يزيد أمره ويعلو شأنه وقدره، ويقوى سلطانه وخطره، وربما أن يملك أرضنا وديارنا وينزع الملك من أيدينا ولا يبقى لنا مع كلامه، وتبقى كلمته نافذة فينا، وما لي إلا أن أطرده من تلك الديار خير لنا وأقول له : اطلب مكانًا في غير هذه الأحياء.

ولما قوي عزمه على ذلك الحال أقبل على الأمير جندبة وقال له: يا جندبة ما لي أراك على هذه الصفة لما خلصتنا من الشمطاء كأن نفسك قد أعجبتك، وعلتك علينا ونحن قد ربيناك وأنت صغير، ولنا عليك الفضل والمنة والخير الكثير؟

فقال له جندبة: وما الذي رأيت مني من القبائح حتى إنك تقول لي هذا المقال.

ثم إنه ولي عنه وهو حردان فعند ذلك أتى دارم إلى بيته وأهل وعشيرته وكبراء أهل الحي.

ولما أن صاروا عنده أعلمهم بما يريد أن يفعله ثم إنه أشار إليهم بما يقول.

ثم قال لأولاد عمه: وها أنا أحضرتكم لتشيروا عليَّ بما يكون فيه الصلاح.

فعند ذلك أحضروا جندبة وأسمعوه ذلك الكلام، فلما سمع ذلك الكام صار الضياء في عينيه ظلامًا.

ثم طلب الأمير جندبة من الأمير دارم الرحيل والإذن في المسير من الحي بعد أن شكره على تربيته وإحسانه.

فقال له: ارحل، ولكن أريد منك حاجة أن تقضيها لي!

فقال جندبة: وما هي الحاجة؟!

فقال: نريد أن تدفع لنا هذا الحرز الذي هو على عضدك معلق حتى إننا ننقله ونعود بعد ذلك ندفعه إليك، وبعد ذلك ارحل إلى حال سبيلك؛ لأننا في غنى عنك إلا أن أهل الحي أرادوا أن ينتفعوا بهذا الحرز لأنهم كانوا متبركين به، وكانوا يضعونه على المصروع فيفيق، وعلى الحامل فتضع، وعلى المريض فيشفى لوقته.

فقال جندبة: سمعًا وطاعة.

ثم إن جندبة أخرج ا لحرز من على عضده ودفعه إليهم، ومضى عنهم إلى أن ينقلوه ويعود يأخذه.

ولما أخذه الأمير دارم منه ففتحه وقرأ فوجد فيه حسبه ونسبه، وقومه وعربه.

ولما عرف الأمير دارم أنه ابن الحارث الكلابي صاح : يا للعرب! فاجتمعت عليه الأبطال من قومه وقالوا له: ما بالك أيها الأمير؟ وما هو الأمر الذي جرى لنا؟

فقال لهم: يا بني عمي اعلموا أن هذا الغلام الذي رأيته هو ابن الحارث الكلابي، ولنا عليه ثأر عظيم من قديم الزمان، وبيننا وبين أبيه خطب جسيم فدونكم وإياه فاقتلوه وبسيوفكم قطعوه.

ثم إنه هم أن يقتله لأجل ما لهم عليه من الدماء فخرج الغلام من بينهم وكل واحد منهم يريد قتله

فقالت عقلاؤهم: لا تفعلوا حتى نستصح الأمر، فرجعوا وهم يقولون: ربما إن دارم يكذب في هذا المقال؛ لأنه أخبر منه بالأحوال وأشد منه عند ملاقاة الرجال.

فأمسك القوم أيديهم عنه، وخرج جندبة من بينهم فلحقه الأمير دارم وهو يصرخ في القبائل وينادي في الأبطال: دونكم وإياه فأبوا هو الذي أخرب بيوتنا وشتتنا من أوطاننا، وأهلك أبطالنا ونهب أموالنا فلا سقى الله قومه بالمزن ولا برحت دياره مملوءة حزن فتبعته الرجال وتسارعت نحوه الإبطال، وخرجت زوجة الأمير دارم وهي متأسفة على فراقه ودارم يصرخ في الرجال وهو يقول: لا توروه إلا كأنكم تسألوه في الرجوع إلى الأوطان حتى تتمكنوا منه.

فلما أدركه الأمير دارم وأولاده أظهرا التأسف على فراقه وسألوه الرجوع فتبين لجندبة منهم الغدر.

فالتفت جندبة إلى الأمير دارم وقال له: اعلم أن كل عليَّ حق التربية ولي عليك حق خلاصك من حصن الشمطاء فرد عني وارجع ودعني أقصد ديار الله الواسعة وأماكنه الشاسعة فإن قلبي منك قد نفر، ولا ينبغي أن يكون لي عندكم مستقر.

فقال له الأمير دارم: كيف أعود عنك وأدعك تخرب ما بقي من البلاد وتهلك العباد وتكون مثل أبيك تشن الغارات وتهلك من بقي من السادات.

ثم إن الأمير دارم حمل عليه هو أولاده حملة واحدة فعطف عليهم جندبة وطعن دارم في صدره أطلع السنان يلمع من ظهره وقتل اثنين من أولاده في حملته وفرق الباقي بصولته.

* * *

غرام جندبة بقتالة الشجعان

وإذا بأمهم قد أشرفت عليهم ومعها جماعة من الحي وصاحت بجندبة : يا ولدي بحق التربية إلا ما عفوت عنهم، ولا تكن منهم.

فلما سمع جندبة كلامها رق لها وعفى عنهم وتركهم وسار على وجهه إلى أن وصل إلى قصر الشمطاء.

فلماء رأوه السودان الذي لها عرفوه ورأوه وهو مذعور فسألوه عن قصته، فأخبرهم بالأمر الذي جرى عليه، فتعجبوا من ذلك .

فقال لهم جندبة: هل لكم أن ترحلوا بنا من هذا الوادي إلى وادٍ غيره وأرض أخصب من هذه الأرض، وأكثر مرعى، ونكون فيها نقطع الطريق ونخون السبيل.

فقالوا له: حبًا وكرامة، فنحن لك عبيد وسامعين مطيعين ثم أخذوا جميع ما يحتاجون إليه، وخرج هو وإياهم تحت جنح الليل إلى أن انجلى الغسق وإذا هم وقد وقعوا في برية موحشة معطشة مدهشة لا نبات فيها يطلع ولا وحش فيها يرتع وحشة المنظر.

ولم يزالوا سائرين وعلى الله متوكلين وبعض من السودان بغض جندبة لأجل

ما سلك بهم تلك الأرض الصعبة، وأرادوا قتله من حيث إنه لا يعلم، وبعضهم يكن على أغراض بعض ويقولو لنا أسوة به إن هلك هلكنا معه، وإن سلم سلمنا معه، فطابت قلوب جماعة منهم في الظاهر. ولم يزالوا سائرين وبعد سواعة وصلوا إلى أرض خصبة معشبة، ففرح القوم بتلك الأرض ونزلوا فيها واستراحوا بقية نهارهم وعولوا على المسير من ذلك المكان.

فتوقف بعض السودان واختلفوا في النقض والإبرام فقال جندبة في سره: هذه وجوه لا يفرح بها رفيق، ولا تنفع في شدة، ولا في ضيق، ولو أن فيهم خيرًا كان للشمطاء مولاتهم.

ثم إن جندبة لاعبهم وضاحكهم، وصبر إلى أن غلب عليهم النوم، فقام إليهم وبدا بالخنجر إلى الأول وذبحه من أذنه، ولم يزل يدور عليهم واحدًا بعد واحد إلى أن ذبح الجميع.

ثم إنه أخذ من الخيل أجودها، وسار تحت الليل، ولم يزل سائرًا إلى أن أصبح الصباح، ونظر بين يديه إلى رياض حسنة زهرة بروائح عطرة، وفي وسط الأرض خبأ مضروب ورمح مركوز، وجواد يرتع، فاستحسن جندبة ما رآه من تلك الأرض، وتعجب من ذلك الخبأ المنفرد وقال: لا شك أن هذا الرجل عابر سبيل لكنه بقي حائرًا في أمره، وجعل ذلك المضرب قصده، فهو يتفجر في ذلك، وإذا قد خرج من ذلك الخبأ إنسان تام الطول كأنه فحل من الفحول، فتأمله جندبة فرآه على ذلك الطول شاب أجرد، أمرد، عليه درع من الزرد، وهو مضاعف العدد، وعلى رأسه بيضة مذهبة الداير، مشطبة الظاهر، كأنها نجم في غياهب.

فلما رآه الجواد محمحم وإليه تقدم، فمسح ظهره بيده، وأقبل عليه وقبل بين عينيه، وأقلب السراج عليه، وشد الحزام، ورق اللجام، هذا وجندبة واقف ينظر إليه.

فلما شد الحصان وثب من الأرض وثبة السرحان، فاستوى على ظهر الحصان من غير أن يضع رجله في الركاب، ثم إنه تقلد بسيفه واعتقل برمحه، ثم قصد نحو جندبة وحمل عليه من غير كلام ولا خطاب، وقصد مه القتال والضراب، فقال جندبة: يا غلام ابدأ بالسلام قبل القتال والصدام؛ لأنه من شيم القوم الكرام فلا يرد عليه جواب، ولا أبدي خطاب فتعين على جندبة قتاله فحمل عليه.

ثم حمل الفارس على جندبة كأنه الأسد الدرغام والليث الهمام، فتلقاه الأمير جندبة كما تلقى الأرض العطشى أوائل المطر، وتطاعنا حتى إن الرماح تقصفت وتضاربا بالسيوف إلى أن تثلمت، وبعد ساعة هاجمه جندبة وضايقه وقد سد عليه طرائقه، ومد يده إليه وقبضه من جلباب درعه وجذبه واقتلعه من سرجه ورمى به إلى الأرض، وأراد أن يضرب عنقه، فقال له بكلام رقيق الصفة: الصنيعة يا فارس الزمان.

فلما سمع منه جندبة ذلك الكلام، فبان له أن المتكلم أنثى!

فقال له جندبة: أن رجل أم امرأة؟!

فقالت له: أنا بنت بكر عذراء، ثم إنها كشفت عن وجهها بعد ذلك اللثام فبان للأمير جندبة وجه كأنه البدر، إذ ظهر من تحت الغمام.

ولما نظر جندبة إلى حسن تلك الصبية وجمالها وظرفها ودلالها حار عقله فيها وزاد عشقًا بها، وهام وتولع قلبه بها، وأتلفه الغرام فقال لها: يا ست الملاح وبدر التمام، وذات الوشاح أطلعيني على سرك وأخبريني بحقيقة أمرك!

فقالت له: يا فارس الزمان وليث العصر والأوان أخبرك بقصتي نثرًا وكلام أم شعر ونظام؟!

فقال لها جندبة: لا فصيحة اللسان وفريدة العصر ومليحة دهرها أنا ما أريد أن أسمع منك إلا شعر ونظام.

فقالت له: السمع والطاعة يا شجيع الزمان، ثم إنها أشارت تخبر جندبة بجميع ما جرى لها بالشعر وهي تقول بعد الصلاة على سيدنا محمد النبي الرسول:

الا أيهـــــا البطل المحـــــامي
ويا صنديد في يوم الزحـــــام
تأنى واســـــمع مني كــــلامي
فــــإني بنت بكر أبا همـــام
بنت القــبــقــبوس القــرم أدعى
وقـــدري قـــد عـــلا بين الأنام
طلعت لشـــدتي ألقى الفـــوارس
بطعن الرمح مع ضــرب الحســام

وذكـــري شـــاع في العـــريان جـمــــعًـــا

وفي الأحـــيـــاء مـــا بين ا لخـــيـــام

وجـــاءت نحـــوي الخطاب تســعى

فلم أرضى وأكـــثـــرهم خـــصـــامي

وقـــد أقـــســمت بالرحــمن ربي

وفـــضل المصطفى بدر التــمـــام

بأني قط لم أكـــتب كـــتـــابي

على مــــــخلوق في طول الدوام

ســوى إن كـــان صنديدًا مــهـــابًا

يكيـــد الخـــصم في يوم الصـــدام

ويقـــهـــرني إذا مـــا التـــقـــينا

نهـــار الحـــرب في وهج القـــتـــام

أتوا الخطاب جـــمـــعًـــا يارزوني

وقـــد جندلتـــهـــم بين الأنام

ولم يقـــدر عليَّ فـــتـــى رآني

على الشـــجـــعـــان كلهم ســـلامي

أنا قـــتـــالة الشـــجــــعــــان أدعى
من الفـــرســـان في البـــيـــدا أمـــامي
وخـــــفـت أبـي يزوجـني جـــبـــانًـا
ويغـــصـــبني ويلزمني التـــزامي
فـــجـــئت لهـــذا المكان مكثت فـــيـــه
وقـــوضت المضـــارب والخـــيـــام
وحـــولي عـــصـــبـــة من كل ليث
نهـــار الحـــرب لم يخش الصـــدام
ونهـــجم في القـــفـــار على القـــوافل
ونغنم كـــســـبـــهم في كل عـــام
وأنت أســـرتني وعـــفـــوت عني
وأنت الكفء بلغني مـــرامي
فـــاخطبني واحظى بي ســـريعًـــا
فـــإني قـــد رضـــيـــتك والســـلام

جندبة ينتقم من قاتل أمه

فلما سمع الأمير جندبة ذلك الكلام صار كأنه في منام وقد تعجب غاية العجب من فصاحتها وظرافتها وقوة قلبها، وفرح بها فرحًا شديدًا، ثم إنها بعد ذلك قالت له: يا وجه العرب، سر بنا إلى حلتنا!

فقال لها: وأين الحلة؟

قالت: هي في آخر هذا المرج، وإن أردت المسير معي فافعل.

قال: فركب جندبة فرسه وسار وهو على حذر منها لئلا تغدر به، وإذا هي قد وصلت إلى حيها، فنظر إلى أرض حسنة، وأبيات قد شرعت وأغنام قد سرحت، وهي ترعى وخيول تسعى والقوم في أطيب عيش، وأهنأ وأسعد زمان وأصفا، فلما رأوا أهل الحي قتالة الشجعان قد أقبلت قاموا بأجمعهم إليها، وسلموا عليها فقالت لهم: أكرموا هذا الضيف الذي قد حل بنا قبل إكرامي فجعل القوم يسلمون على جندبة ويسألوه أن ينزل عن جواده ويدخل المضرب معها، ففعل ذلك ونحرت النحور.

ولم يزل عندها في أتم سرور ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع ورد عليهما ضيوف فأضافتهم وأكرمتهم، ثم إنها جمعت بينهم وبين جندبة في مضرب

واحد، وقدمت لهم الطعام فأكلوا القوم على حسب الكفاية، وقدموا المدام فشربوا وطربوا ودخلوا في الأحاديث الكثيرة التي تزيد وتنقص، وما في الأحاديث أحس من شيء يجري للإنسان فتحدث به ما أمكنه فجاء الحديث على جندبة، فأخذ يحكي لهم ما جرى له ما دارم ويقول:

«والله عمري ما رأيت أعجب حديثًا لأني أحسنت إليه وخدمته، ومن القتل خلصته، فطلب قتلي فرد الله فأسه، وكل من بغى رجع البغي عليه، ثم جعل كل واحد منهم يتحدث بما جرى له مع الشجعان والأقران، وما جرى عليهم من الشدائد وما لاقوا من الأوابد، وكانوا عشرة، فتحدث تسعة بما جرى لهم ولم يبق غير رجل واحد.

وكان المقدم عليهم وهو عبد أسود فقالوا له: وأنت يا أمير مالك لا تحدثنا عما جرى لك؟

فقال: والله يا وجوه العرب ما فيكم مثل من جرى له مثل قصتي ولا مثل محنتي!

فقالوا له: ما لك تحدثنا بها.

فقال: اعلموا أنني كان لي سيد من رؤساء العرب، وكان أفرس أهل زمانه تخافه الملوك على شدتها والسباع في أوديتها فأتاه طارق الحمام، ومضى إلى ربه بسلام، وبقيت زوجته خائفة خوفًا شديدًا من الاعتداء والأضداد وهي مشغولة القلب أن يهجموا عليها، فهربت عبيدها وجوارها، ولم يبق في الحي إلا أنا فازدادت سيدتي فزعًا من خوفها، وكانت حاملاً على ليلتها فادعت بي

وقالت: ويلك يا سلام أفيك خير حتى تنجو من هذا المكان قبل أن تدركنا الأشرار؟

فقلت: نعم.

ثم عمدت إلى ناقة فطويت عليها وشيدت عليها هودجًا وأطلعتها فيه، ثم إني سرت بها في الليل وكان لها من الجمال ما لا يوصف فوسوس إليَّ الشيطان بوصلها في وادي بقرب حي دارم، وقد غاب عني الصواب وسدت في وجهي الأبواب لما تضارمت بي النار، ثم إني كشفت لها عن الأحوال وما أريد منها من الفعال.

فقالت: والله ما أفعل هذه الفعال، ولو شربت كؤوس الحمام، فلم أسمع لها خطابًا ولا حفظت لها زمامًا، ثم إني أشهرت سيفي وضربتها صفحًا فألقيتها على وجهها فنادتني : انج بنفسك يا عبد السوء! فقد أتاني الطلق بإذن خالق الخلق ثم صاحت صيحة أدهشتني ثم وضعت في تلك الساعة غلامًا كأنه القمر في ليلة أربع عشر، فعمدت سيدتي إلى الغلام فأرضعته وأقبلت عليَّ بالتهديد والوعيد فخفت منها أن تصل إلى ذلك الحي وتعمل على هلاكي، فبدأت بها قبل أن تبد بي، ونهضت إليها وقتلتها، وسرت وما أدري ما فعل الدهر بها وبولدها، وهذا حديث والسلام وحق الواحد المتعال.

ثم إني توصلت إلى هؤلاء الأقوام وفرقت عليهم ما كان معي من الأموال، وصرت المقدم عليهم كما ترى وكان مع سيدتي قصبة من فضة فيها حرز كتبه الحكيم دهقان ولا أدري ما كان من بعدي.

قال نجد: ولم يكن في الاتفاق أعجب من لقاء جندبة بعبده سلام هذا، وجندبة قد أقبل على ذلك العبد وقال له: ما كان اسم سيدك يا غلام؟

فقال سلام: كان اسمه الحارث بن عامر الكلابي!!

فلم يمهله جندبة أن يتم كلامه دون أن يجذب سيفه وضربه وأطاح رأسه عن بدنه، فنهض أصحابه وقد جردوا سيوفهم على جندبة وأرادوا أن يسقوه كأس الحمام، فقامت إليهم قتالة الشجعان ومنعتهم من ذلك وقالت لهم: إذا كان في غداة غد افعلوا به ما شئتم عندما، ويطلب الطريق ولا يمنعكم عنه مانع.



جندبة ينقذ قومه من الهلاك!

وكان من أمر العبد سلام أنه لما قتل سيدته أخذ المال الذي كان معها، ثم إنه سار فالتقى برجال من قطاع الطريق ففرق عليهم تلك الأموال واستخدم به الأبطال، وأراد أن يصير مثل ما كان عليه سيده الحارث، فصار تحت يده رجال كثير من قطاع الطريق وكان وصوله بهذه الشرذمة اليسيرة إلى هذه الأرض، لأنه خرج ينظر إلى أرض خصبة ينزل فيها فاجتاز بقتالة الشجعان وجرى له ما جرى.

قال نجد: ثم أشارت قتالة الشجعان إلى الرجال أن يتركوا جندبة إلى الصباح، ففعلوا ذلك وصاروا يحرسونه من كل مكان وجانب فعندها أخذته قتالة الشجعان ودخلت به إلى مضربها، وقالت لهم: هذا ضماني إلى غداة غد أسلمه إليكم!

فقالوا لها: افعلي ما بدا لك ثم إنهم باتوا تلك الليلة منتظرين الصباح.

ثم إن قتالة الشجعان أقبلت على جندبة وقالت له والله إني خائفة عليك من هؤلاء الأقوام أن يقتلوك.

فقال لها: وما الذي تشيرين عليَّ به؟

فقالت له: أنا أتزوج بك، والله مطلع عليَّ وعليك وتكفي شر هؤلاء القوم.

فقال جندبة: افعلي ما بدا لك، ثم انهما تصافحا وتباكحا وأقاموا إلى نصف الليل، وساروا عن الحي وطلبوا عرض البر والبحر طالبين أرض الحجاز، فساروا ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع أشرفوا على حي حسن ذات عيون وزهر مكنون.

فبينما هم سائرون في وادي من أودية ذلك الحي بين تلك الأشجار وإذا قد لاح لهم جبل كأنه الثلج الأبيض، فعمدا إليه ونزلا عليه، فأراحوا هناك ساعة من النهار، وساروا إلى أن مالت الشمس إلى الغروب، فأشرفوا على وادي كثير النبات مخضر الجنبات وعلى حافة ذلك الوادي بيوت ومضارب وخيام وفيها عالم عظيم ورماحهم مركوزة وخيولهم مربوطة وبيوتهم عالية وسعادتهم نامية، وبسط الديباج مبسوط، والجمال والنوق باركة والأوباء يضربون بالمزاهر، وقد أمنوا من الأعداء وتصاريف الردى وفي وسط الحي منازل الضيوف.

فلما نظر جندبة إلى ذلك الحي نزل هو وقتالة الشجعان في جنب ذلك الوادي وقد زاد حبها في قلبه وتحدث هو وإياها وقد أعجبه كلامها فقالت له: يا أمير جندبة ليش قتلت العبد سلام بغير ذنب وظلمته؟

فقال: والله يا أميره إن ذنبه عظيم، وما ظلمته وإنه يستحق ذلك.

فبينما هما في ذلك الكلام، وإذا هم بغبرة قد طلعت وعجاجة قد ارتفعت وانكشفت وبان من تحتها عسكر جرار، وهو يزيد على خمسمائة فارس كأنهم

الليوث وعليهم الدروع السوابل الذي كأنها عيون الجراد المضاعفين في العدد ومعهم رجال يزيدون عن ألف رجل في أيديهم الجحف الثقال والسيوف الحداد.

فلما نظرهم جندبة ظن أنهم من خيل الحي، وإذا بهم قد افترقوا على ذلك الحي من أربع جوانب، وقد هزوا في أيديهم قطع الرماح وجردوا البيض الصفاح، وقد كثر في ذلك الحي الصياح، وطلعت أبطاله تريد الكفاح وفي أيديهم البيض والصفاح، وقد أشهروا السيوف الصقال والرمال العوال، وتبادرت الرجال والنساء والعبيد والجوار، وركب أهل الحي ووقع القتال واشتعلت نيران الطعن والضراب واشتد الكرب وثار الغبار من سنابك الخيل، فعاد في الهوى كقطع الليل وعظم القتال، وكثر الزالزال، وقل الكلام، وتخضبت اللحى بالدماء، ونهبت بعض بيوت القوم وجعل القوم يستغيثون بالحي الذي لا يموت.

وكان ذلك القوم الذين هجموا على ذلك الحي ينادوا بالأخذ بالثأر، وأهل الحي ينادون: يا لعامر، ويا لكلاب، وقد اشتد بينهم القتال.

فلما سمع جندبة صياحهم «يا لكلاب» أقبل على قتالة وقال لها: اعلمي أن هؤلاء القوم هم بنو عمي ولحمي ودمي وفيهم حسبي ونسبي ولا صبير لي عن معونتهم.

فقالت له: والله إني مساعدتك على ذلك، ولا أتركك ترمي روحك في هذا الجمع الشديد وأنت وحيد فريد.

ثم إن الأمير جندبة ركب بعد ذلك هو وقتالة الشجعان على خيولهم إلى أن أدركوا القوم وصاحوا يا آل كلاب وحمل الأمير جندبة كأنه شعلة نار على الأعداء، وأنزل بهم ونادى وقال: أنا ناصل ومهلك الرجال ومبيد الأبطال، وكاشف العار، ومدرك الثأر.

ثم إنه طعن فارس أرماه وآخر بالسيف أرداه، وثالث فاجاه، ورابع أعدمه الحياة، ثم إنه صاح وأعلن الصياح: يا آل كلاب، يا آل كلاب،

فأجابته زوجته: لبيك ها نحن بين يديك أنت من على اليمين وأنا من على الشمال، فبدوا عند ذلك الأبطال وقتلوا الأقران وهلك الشجعان، وطعنوا في صدور الرجال، وأنزلوا على بني شيبان الذل والخبال.

وقد نظر أهل الحي إلى فعالهم وهم يردون الأبطال، ويجرعون كأس الحمام، فحملوا على الأعداء، وأسقوهم كاسات الردى، وقد قويت قلوبهم واشتدت عزيمتهم، وهجموا على أعدائهم بعزائم قوية، وخلصوا الغنمية من أيديهم وأخرجوهم من البيوت وشتتوهم في تلك الجبال والفلوات، وقد قلتوا منهم خلقًا كثيرًا.

ولما فرغوا من تلك الأمور المشكلات رجعوا إلى جندبة وقتالة الشجعان قاصدين ولهما شاكرين.

فلما اجتمعوا بهما سلموا على الأمير جندبة وزادوا له في الإكرام لأجل ما رأوا منه عند الصدام، وقالوا له: من أنت حياك الله يا فارس الخيل؟

فقال لهم: جندبة يا وجوه العرب! ما هذا وقت سؤال ولا مقال هذا وقت الراحة من الحرب والقتال،

فعند ذلك أخذوه وردوا به إلى الحي والإبيات وما أمسى حتى لم يبق أحد من الأعداء بل تشتتوا في القفار، وحل بهم الدمار، وقد نهبت بنو كلاب خيلهم وعددهم وأموالهم والأسلاب، وما كان معهم من النهاب.

وباتوا في حيهم فرحين وبالنصر مسرورين وبجندبة محدقين وهم من شجاعته متعجبين وهم يقبلون الأرض بين يديه ويثنون عليه.

ولما استقر بهم القرار قالوا له: من أنت أيها السيد الذي منَّ الله بك علينا، وأسعدنا بشجاعتك؟

فكشف لهم عن حسبه وأظهر لهم نسبه، وذكر لهم قصة دارم الذي رباه وما جرى له معه من الأمور والأسباب.

ولما سمعـــوا بني كلاب كلام جندبة صاحوا كلهم : الآن قد اتضح الحق وزهـــق الباطل، وزال الشك والارتباك، وعرف من العنوان ما في الكتاب، وظهر الصواب، وقد رجعت الماء إلى مجاريها والمال إلى أصحابه والسيف إلى قرابه.



ثم تقدموا إلى جندبة وتقربوا إليه بكلمات يقدرون عليه وقالت مشايخ الحلة: والله العظيم انت أميرنا، وابن أميرنا، وما بقي لنا أمير سواك، ولا مقدم إلا إياك، ثم قدموه عليهم وقضوا ذلك اليوم في سرور وفرح وغبطة والصلاة والسلام على سيدنا محمد الرسول المشرق بالنور.

* * *

ثمن الإمارة!!

وكان هؤلاء القوم خلفاء للحارث أبو جندبة وهم من خواص أصدقائه، ولما مات تفرقوا مدة من الزمان من خوف العريان، وبعد ذلك اجتمعوا وانضموا إلى هذه الحلة وجعلوا عليهم أميرًا منهم، وكان شيخًا كبير السن يقال له «جابر بن حنظلة العامري» وكان أبغض الناس عنده من يذكر الحارث بالشجاعة والخير، وكان أعقل الناس وأشجعها، وكان قومه إذا ذكروا الحارث بين يديه بالشجاعة يسبهم ويقول : ما كان الحارث إلا قاطع طريق وخائن وكافر.

فلما رآهم قد التقوا بجندبة في ذلك اليوم ورآهم قد اجتمعوا عليه وتركوه ما هان عليه ذلك وقد اغتاظ لذلك غيظًا شديدًا، وبات تلك الليلة في هم ما عليه من مزيد القلق، كثير الحرق.

ولما أصبح الله تعالى بالصباح اجتمع بهم وسألهم عن حالهم، فقالوا له: إن الأمر قد اشتهر والحق قد ظهر، والباطل قد خسر، ولم يبق غير الحق وهذا جندبة بن الحارث بن عامر الكلابي بن صعصعة وهو الذي كان سبب خلاصنا من الأعداء وهو اليوم أميرنا والحاكم علينا، وهو اليوم سيد القوم وإمامهم ورئيسهم.

فقال لهم جابر: هل هو أكثر مني مالاً وأعظم رجالاً؟

فقالوا له: المال يفنى والرجال تجيبه.

فقال لهم: هل هو أشجع مني؟

قالوا: نعم. لولاه لكنا قد هلكنا.

فقال لهم: إذا كان الأمر كذلك وقد جعلتموه مقدمًا فليخرج لي فإن غلبني كان مقدمًا علينا، وإن قهرته أقمت موضعي.

فقالوا له: قد أشرت بالصواب.

وبلغ الخبر جندبة فقال: لقد قال الصواب، ونطق بالأمر الذي لا يعاب.

ثم إنه أقبل على جابر وجال وصال، ثم قال جابر: يا جندبة اصبر عليَّ حتى أركب جوادي وأفرغ عليَّ لامة جلادي.

فقال له جندبة: افعل ما بدا لك.

فما غاب إلا ساعة وعاد وعليه درع من البولاد المفرق بالذهب، وعلى رأسه عمامة خضراء بقصب متقلد برمح مكعب، ومن تحته فرس شهب تنهب الأرض نهبًا كأنه شعلة نار، وقد ركب عليها طالب الثأر والحجر تدهش النظار إن طلب منها الجري عرفت، وإن شارت عليها بالوقوف وقفت، وإن همزها طارت إلى الغيوم وصاحبها يلتقط النجوم مضمرة الخواصر مليحة الحوافر، واسعة المناخر، حسنة الباطن والظاهر لها أصل فاخر وغرة مثل الهلال الزاهر صنعة الملك القادر تربية العرب أصحاب المفاخر كأنها قطب الفلك الدائر، وركبها في

أمان من كل عدو ومضادد ومكايد ومعاند.

فلما نظر جندبة إلى تلك الفرس التي تحت جابر ونظر إلى انعطافها وذهابها وانحرافها هام بها قلبه واشتغل بها فكره ولبه.

وما كانت إلا ساعة حتى ركب بقية القوم وأتت سائر بنو كلاب ووقفوا الاثنين ما بين الصفين واشتهروا بين الفريقين وجالوا وصالوا على ظهور الخيل، وجرى بينهم من الحرب ما لا يوصف ومن القتال والطعن وحمل كل منهما على صاحبه، وبعد ساعة وقفا للراحة فأشار جابر إلى جندبة .

ثم حمل جابر علي جندبة حملة الحنق وصاح عليه، وجرد سيفه من غمده وضرب به جندبة ضربة سمعها كل من كان حاضرًا فبطلها جندبة بحسن صناعته، ثم إنه حمل عليه وأقبل إليه وضربه بالسيف على عاتقه أطلع السيف يلمع ما بين علائقه فانجدل جابر ورحل إلى المقابر.

ثم إن جندبة قال: يا بني كلاب دونكم ونهب الأموال والأسلاب، فهو هبة مني إليكم، وهذه الفرس فإني ما أعطيها لأحد منكم.

فقالوا: والله يا أمير ما تصلح إلا لك، فلو فتشت جميع الأقاليم لم تر لها مثل، ولم تلق لها شبيه؛ لأنها فريدة العصر والأوان.

فقال جندبة: والله يا وجوه العرب إني من ساعة ما رأيتها قسى قلبي عليه، وما كان في نيتي قتله، وما طلبت إلا أسره وأخذها منه وأطلقه، ولكن هو طلب قتلي وبغى عليَّ فقابله الله على بغيه، وإن هذه المهرة من وقت ما وقع عليها

ناظري اشتغل بها قلبي وخاطري فقال له بعض كبراء المشايخ: والله يا أمير ما تصلح إلا لك لأنها يتيمة الدهر فشكره جندبة واثنى عليه.

* * *

يأخذ الأموال ويعطيني زوجته!!

وإن أصحاب جابر لما رأوا المهرة تحت جندبة حملوا عليه وأرادوا خلاصها فحملت عليهم بنو كلاب، وتصادمت الرجال والأبطال، وجرت الدماء وعمل السيف ، ولم يزالوا في طعن وضرب يقد ويهد حتى انهزمت رجال جابر وأقبلوا بجندبة إلى الحي فقدموا إليه الخيول العربيات والمضارب والعماريات، وانقادت إليه الركايب ودارت به الكتايب، وأخرجوا لزوجته الحلل الفاخرة والنعم الظاهرة.

وصار جندبة زعيم القوم ورئيسهم وأميرهم وأراد أن يرحل عنهم ويستخلف واحدًا منهم مكانه، فما مكنوه من ذلك، وأقام هو وزوجته في ألذ عيش وأهناه وأطيب زمان وأصفاه وانطاعت له البلاد واجتمعت على محبته قلوب العباد، وصار يشن الغارات ويلازم الغزوات مهما حصل له يقسمه عليهم ويستخدم به الأبطال إلى أن اجتمع عليه كثير من الشجعان.

وكان جندبة قد تعلق قلبه بالمهرة وكان اسمها «مزنة» وكان في كل يوم يسير إليها ويود أنه بنفسه يفديها من كل سوء ويركب كل يوم إلى ظاهر البيوت وحوله جماعة من الشجعان، ويطلب الصيد والقنص وهم حوله كأنهم النجوم الزواهر أو الأسود الكواسر.

فلما كان في بعض الأيام خرج على عادته إلى الصيد والقنص وزوجته «قتالة الشجعان» إلى جانبه، وإذا قد لاحت لهم غزالة في صدر البر، فأخذوا خلفها الطراد، وقد داروا حوله الشجعان والأبطال، ولم يزالوا خلفها في البر، وقد هلكوا من شدة الهجير والحر، فعادوا عنها خائبين، وطلبوا ديارهم راجعين، وإذا قد لاح لهم لمعان سيوف وازدحام صفوف وضجيج نسوان وأطفال وقعقعة لجم وهمهمة أبطال وصلصلة أقيال، فتبينوا المأسورين، وإذا هم من بني كلاب فتقدم إليهم جندبة ومن معه من العريان، وبذلوا فيهم السيوف والرماح وشتتوهم في تلك البراري والقيعان وخلصوا ما كان معهم من الأصحاب والسبايا والأموال.

وكان السبب في مجيء هذه الخيول إلى حي بني كلاب أمر عجيب، وذلك أن جابر لما قتله جندبة وأخذ موضعه كان له أخ يسمى «كاسر» فسمع بقتل أخيه فطلب يأخذ بثأره، ويقعد موضعه، فجمع كبار قومه، وأعلمهم بما جرى من الأمر والأسباب وكيف قتل جندبة أخيه؟

فقالوا له: نحن لك وبين يديك، ولا نبخل بأرواحنا عليك، وكل ما أمرتنا به فعلناه.

ثم إنه استخدم الرجال، وبلغ الخبر إلى العرب الذي كان سلام مقدمهم، فاجتمعوا الكل على كلمة واحدة ولم يزل يجتمع عليهم فرسان حتى صاروا في ستة آلاف فارس، واتفق رأيهم على أن يهجموا على حي بني كلاب ويقتلوا جندبة ويجعلوا كاسر مكانه.

فسـار الكل طالبين جندبة، فـاتفق لهم أنهم صـادفـوا حـمل الخليفـة في طريقهم فـأخذوه بعد أن قتلوا بعض رجـاله وأسـروا البعض، إلا أن الله تعـالى قـابلهم على فعلهم وأخـذهم بذنوبهم؛ لأنهم وصلوا إلى حي بني كـلاب وجندبة وأصحـابه في الصيـد والقنص كمـا ذكرنا، فقـتلوا ونهـبوا وسـفكوا الدمـاء والتقاهم جندبة وأصحابه وهم راجعين من الصيـد والقنص هو وفرسانه كما ذكرنا، وقـاتلهم القتال الشديد واستخلص حمل الخليفة ومـا معهم من الأموال والرجال.

ورجع جندبة إلى الحي والأبطال والفـرسـان من حـوله وهو مـؤيد منصـور والنسـاء والأطفال يدعون له بطول البـقـاء ومـرادهم لو جعلوه بين جفونهم إلى أن وصلوا الحي ثم جددوا الأفراح والسرور، وقد زالت عنهم الأحزان.

ثم إن جندبة أحضـر الرجـال الذين قد أسـرهم كـاسـر، فـرأى زيهم غـريب فسألهم عن حالهم وعن أنسابهم، فقالوا: أيها الأمير والسيد الخطير نحن من أصحاب عبد الملك بن مروان، وكنا قد خرجنا إلى البلاد وأخذنا معنا الخراج، وعدنا طالبين دمشق، فوجدنا هؤلاء في الطريق فأخذوا منا الأموال وقتلوا منا جماعة من الرجال وأخذونا أسارى والصناديق التي أخذوها كانت معنا وهي فيها ستين ألف مثقال ذهب سوى الجواهر والتحف واليواقيت.

فلمـا سمع الأميـر جندبة ذلك الكلام فتح الصنـاديق وأخرج منهـا الأموال، وأراد أن يفرقـهـا على الرجـال فـأشـارت عليه المشـايخ وقـالوا له: يا أمـيـر أنت تعرف أننا نحبك وما نشير عليك إلا بالحق والخير والرأي عندنا أن تأخذ هذه الأموال وتسير بها إلى دمشق وتشهد لك هؤلاء الرجال أنك الذي خلصتها من

الأعداء بعد أن أخذوها وملوكها، فإذا سمع الخليفة ذلك يقلع الإمارة من بني سليم ويجعلها في بني كلاب، ولا سيما وأنت الجحجاح والبطل الوقاح.

فلما سمع جندبة ذلك من وجوه عشيرته قال لهم: والله لقد أشرتم بالصواب والأمر الذي لا يعاب.

ثم إنه أخذ الصناديق والأموال وأخذ معه الرجال وسار هو وزوجته «قتالة الشجعان» في صحبته ومعهم من الفرسان جماعة إلى أن وصلوا دمشق، فاستأذنوا عليهم ودخلوا على عبد الملك بن مروان وزوجته معه بصحبته.

وكان الخبر قد وصل إلى الخليفة بأخذ الأموال فقلق لذلك قلقًا عظيمًا إلى أن وصل إليه الخبر أن الأمير جندبة بن الحارث قد خلصها فجلس يرتقب الأخبار ويتطلع إلى الآثار إلى أن قدم جندبة عليه، ووصل إليه بالأموال ففرح بذلك فرحًا شديدًا، وسأل جندبة عن حاله وبما جرى له فأخبره بالحال، وسلم إليه الأموال، وبقي منتظر الإحسان من الخلع والنوال.

وكان لعبد الملك بن مروان ولد يقال له «هشام» وكان يميل إلى الصور الحسنة من النساء الملاح فنظر إلى زوجة جندبة التي هي قتالة الشجعان، فاشتغل قلبه به، وطار عقله ولبه، وعظم به الهوى، وأحاط به الجوى فدخل عليه أبوه عبد الملك بن مروان في بعض الأيام فرآه مصفر اللون، مضطرب الكون، فقال له: يا ولدي ما الذي دهاك وبشره رماك.

فقال: يا أبتي لقد هام قلبي بامرأة هذا البدوي، ولم أطق الصبر عنها ساعة واحد، وإذا لم أصل إليها مت كمدًا؛ لأنها سلبت روحي.

فقال له أبوه: والله يا ولدي إن هذا عقل فاسد، لأن هذا الرجل غريب، وقد عمل معنا خيرًا وجميلاً، وخلص مالنا ورجالنا، وبعد ذلك نكسر حرمته ونأخذ زوجته.

فقال له هشام: يأخذ هو الأموال الذي جاء بها ويعطيني زوجته، وإن كان ما يفعل ذلك وإلا أخذتها منها غصبًا، فصاح عليه أبوه واغتاظ من كلامه وخرج من عنده مغضبًا.

وهشام قد عظمت بلواه وتزايد جواه حيث يأخذ أبوه بيده ويوصله إلى مناه، فأقبل على جماعة من أصحابه وأخذ منهم مائة فارس وأرضاهم بالمال، وخلع عليهم الخلع الغوال، وقال لهم: إني أريد منكم إذا خرج هذا جندبة وطلب الرجوع إلى بلاده تتبعونه وتكمنون له في الطريق، وتحيلون بينه وبين زوجته، وتأخذوها منه وتقطعوه بالسيوف، فأجابوه إلى ذلك وقالوا له: هذا الشيء والأمر في أي وقت طلبته فعلناه، ولكن أرسل إليها من خلف زوجها فإن أجابت كان بها، وإلا فنحن نفعل ذلك وقت ما تريد.

فقال لهم: هذا هو الصواب والأمر الذي لا يعاب.

ثم إنه دعا مربيته التي ربته وأعاد عليها ما هو فيه من العشق والغرام ثم أعطاها تحفًا عظيمة وأموالاً جسيمة وقال لها: اذهبي لزوجة هذا البدوي الذي جلب لنا الأموال وقولي لها إن ابن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يطلبك لنفسه، وهو أحب إليك من هذا البدوي الذي لا قدر له ولا قيمة، ولا له شغل إلا قتل الرجال ونهب الأموال.

فسارت المربية إليها ومعها تلك التحف والأموال، ثم أعلمتها بجلية الحال، وذكرت لها ما قاله ابن الملك من ذلك المقال.

فلما سمعت قتالة الشجعان ذلك المقال اغتاظت غيظًا شديدًا وقد تغير لونها وقالت لها: يا عجوز النحس إن علم زوجي بهذا الأمر فهو يهلك هشام لأنه لا ينظر في العواقب.

فقالت لها المربية: والله إن ابن أمير المؤمنين خير لك ممن يمشي على وجه الأرض.

فقالت: والله لا كان ذلك أبدًا ولو سقيت كأس الردى.

فبينما هم في الكلام وإذا بجندبة دخل عليهم فأعلمته زوجته بالمقال، وقد أطلعته على جلية الحال، فقام عرق الغضب بين عينيه ثم ضربها بعامود من حديد خلط عظمها في بعضه البعض، وأمر غلمانه أن يمرموها إلى ظاهر البلد فرموها ورجعوا.

وإن هشامًا استبطأها وقد يئس منها فاجتمع ببعض غلمانه وندمائه وقد أطلعهم على ما جرى له من إرسال المربية، وقال: ما أظن إلا أنها قتلت فاتفق رأيهم على أنهم يأخذوها بغير اختيارها إذا عاد جندبة طالب دياره.

وكان جندبة أقام بعد ذلك خمسة أيام والإقامة تتبه في كل يوم ولم يجر له حديث في الإمارة فقال لمن معه: لقد خسرنا في هذه التجارة، ولو كنا أخذنا الأموال وقعدنا في ديارنا كان خيرًا لنا ثم أقام ذلك اليوم ومن الغد دخل على الخليفة وأخذ منه الإذن في أمر الرحيل فأذن له بذلك وأعطاه شيء كثير من

المال والخلع الحسان، وخلع على كل من معه من الرجال، وأمرهم بالمسير بعد أن شكرهم وأكرمهم الإكرام الكثير وبعد ذلك خرج جندبة واصحابه وساروا من دمشق طالبين أرض بني كلاب..

* * *

قتيلة الحب!!

وما سار من دمشق إلا قدر ميل أو فرسخ طويل، ولم يشعر إلا وقد خرج عليهم كمين وهو قدر خمسمائة فارس وهشام في مقدمتهم وقد حمل على جندبة برجاله، ولما رأى جندبة إلى تلك الخيل حمل عليهم حملة الأسد فقتل منهم ثلاثين فارسًا، وبعد ذلك تكاثروا عليه وحجبوا عليها وأخذوها وهي في الهودج وجندبة مشغول عنهم بالقتال، وهو لا يعلم بذلك الحال.

ولما ملكوها الأبطال ساروا بها نحو الشام والقتال عمال، ولما علموا باقي الفرسان أن أصحابهم قد ملكوا الهودج وساروا به ردوا على أعقابهم راجعين.

فرجع جندبة عنهم ولما هدئ من القتال وراق باله افتقد جندبة أبطاله فما رأى فقد منهم إلا خمسة أبطال، وسأل عن زوجته فلم يجد لها آثارًا، وقالوا : لا علم لنا .

فحار في أمره وذهب عقله ولبه وصار يفتش عليها في القتلى.

فقال له بعض الجرحى: على من تفتش يا أمير وما تطلب من البحث والتقيب؟

فقال له: أطلب زوجتي.

فقال له: نحن ما جئنا إلا في طلبها، وقد أخذها ابن أمير المؤمنين، وطلب بها دمشق الشام.

ثم إنه حكى له الأمر والأحوال، فلما سمع منه ذلك المقال سحب الحسام وأرد أن يقطع الطريق على القوافل والسفار من جميع الجهات والأقطار، ويرجع في طلب زوجته ويهجم على دار الخلافة ويخلصها من دمشق الشام، ويقتل ابن الملك، فمنعوه من ذلك أكابر القوم وقالوا له: ما هذا صواب، واعلم يا أمير أن يد الخلافة لا تطاولها يد ولا تعاند، ولكن نحن نعطيك غيرها من بني عمنا، وتكون أخير منها؛ لأن البنات كثير.

فقال لهم: لا بد أن أفعل أمرًا مع الخليفة وولده، ولو كان في غير هذ الأيام.

ثم إن جندبة سار وقد استوحش لزوجته وسار يبكي عليها الليل والنهار.

ثم توجه إليه قومه وبنوه عمه وقالوا له: لو كان غريمك دون هذا الغريم كنا فديناك ومن حربه كفيناك، لكن يد الخلافة لا تطاولها يد،

ولم يزالوا سائرين إلى نصف الطريق فوجد الأمير جندبة جماعة معهم مال كثير محمول إلى الخليفة عبد الملك بن مروان، وقد أتى إليه من بعض الجهات، فتعرض لهم جندبة فمانعوه القوم الذين مع المال، فقتلهم وأخذ المال منهم وسار ولم يزل سائرًا إلى أن و صل إلى حي بني كلاب وهو مهموم مغموم من أجل زوجته «قتالة الشجعان».

فجاؤوا إليه أهل الحي ليسلموا عليه فراوه محزونًا لا تنشف له دمعة، ولا

تبرد له لوعة، فأقبل عليه رجل من أهل الحي وكان شيخًا كبيرًا من أمراء الحي، وكان اسمه الأمير «عامر» وقال له: يا ولدي لا تتأسف على ما ماضى، ولا تبكي على ما فات، فإن الدهر كثير الآفات، واعلم أن لي بنت اسمها «حسنا» وهي أبهى من البدر ليلة كماله، وأسنى وأزهى ذات جمال وبهاء وقد واعتدال، وقد خطبوها مني أمراء العرب فأبيت أن أزوجها لأحد منهم، وهي هبة مني إليك .

فقبلها منه الأمير جندبة عند ذلك ودفع إليه مهرها شيئًا كثيرًا من المال والملابس والنوق والجمال والخيل وغير ذلك، فجهزها له في خمسة أيام، ودخل عليها في اليوم السادس فرآها درة ما ثقبت ومطية لسواه ما ركبت فأزال بكارتها وتملى بحسنها وجمالها وقدها، واعتدالها لجاءت على خاطره ومزاجه وسلا بها عن قتالة الشجعان.

فهذا ما كان من جندبة وأما ما كان من أمر هشام بن الخليفة فإنه لما أخذ قتالة الشجعان أقام معها مقدار شهرين وهو يراودها عن نفسها، وهي تمانعه وتأبى ذلك، وكلما تقرب إليها نفرت منه، وكلما تبسم في وجهها عبست وقطبت وأخذت تسبه وتشتمه وتنهره، ولا تدنو منه ولا تقربه، فاغتاظ منها غيظًا.

ولما طال عليه الأمر وخاف من انحطاط قدره بين البشر إذا شاع عنه ذلك الخبر اغتاظ منها وقتلها ولفها في ثيابها وأخرجها في دهليز القصر وأمر الجواري أن يدفنوها في الليل.

«مزنة» بين سلمى وسعدى

وأما ما كان من الأمير جندبة فإنه في كل يوم ما زال يزداد قوة وكرم، وقد زادت همته وقد أطاعه جميع العربان وأتت إلى خدمته من كل مكان واستخدم الشجعان وعظم شأنه وسلطانه وقوي سلطانه وزاد وقاره وصار مقدمًا علو بني كلاب والحاكم على سائر الأبطال.

وكان مروان بن ا لهيثم له الإمارة على بني سليم وكان ملك عظيم وجواد كريم له نظر صائب، وكان مع ذلك الملك هذا لم يكن صاحب شجاعة بين قومه، وكان جندبة أفرس منه في حومة الميدان ومقارعة الأبطال.

وكان حديث مزنة أمر عجيب وحديث مطرب ريب نحب نذكره على الترتيب بعد الصلاة على سيدنا محمد الحبيب الشفيع ﷺ الذي من صلي عليه لا يخيب، وذلك أن مزنة هذه كانت تسوي من المال عشر بدر، ولم يكن في ذلك الزمان في خيول العربان أجود منها ولا أسرع ولا عاين شكلها، وكان الريح من جريانها والرعد من صهيلها والصياح من غرتها فيها يجوز الوصف والسواد الحالك من عينيها والشمس تشرق من بياض نواصيها كأنها القضاء المنزل أو الريح المرسل سليمة من العيوب محبوبة للقلوب.

وكان الأمير جندبة قد شغف بحبها شغفًا شديدًا، وكان كثير الحرص عليها وقد أقام الحرس خوفًا من السلالين وفزعًا من العيارين والطراق، وقد شاعت بحديثها الركبان والسفار، وتحدثت بها القوافل والرفاق، ووصفوا في وصفها جميع الخلائق، وكان جندبة أوحد أهل زمانه وفريد عصره وأوانه وكانت حجرته فريدة في الخيل، فما بقي في العرب شاعرًا إلا وصفها في شعره ونظمه ولا صاحب إلا وذكرها.

ووصل خبرها إلى بني طيء وأميرها وملكها والحاكم عليها، وكان اسمه الفطريف بن مالك الطائي، فهام قلبه بها، وطار نومه من أجلها شوقًا إليها وحسرة عليها وبقي من حبه حيران ولهان لا يدري كيف يصنع، فبذل من أجلها المال الجزيل الذي ليس بقليل من الإبل والخيل والغنم والعبيد والدنانير والنعم الكثيرة لكل سارق وشاطر حاذق، وما بقي سلال إلا وخاطر في طلبها طمعًا في الأموال والأنعام فلم يظفر أحد منهم إلا بالتعب والعناء.

ولما ضاقت على ملك بني طيء حيلته وازدادت بلته بعد بذل الأموال بذل فيها نصب مملكته ونعمته، فهلك كثير من الناس بسببها، وبعد ذلك انقطع عن طلبها طمع الطامع فلما أعياه ذلك الأمر بذل ابنته «سلمى» وكانت فريدة عصرها وجوهرة دهرها، وقد حمل إلى أبيها الأموال من جميع الملوك وهو يأبى أن يزوجها فلما هام قلبه بمزنة هانت عليه ابنته «سلمى» وقال: بذلت الكريمة في الكريمة ثم نادى يا معاشر الأصحاب والخلان من كان في ابنتي راغب وفي كريمتي طالب، فقد جعلت مزنة فرس جندبة ابن الحارث صداقها وأضيف إلى ابنتي خمسمائة ثوب من الديباج مختلفة الألوان بعشرة أحمال من

التحف الفوال مع المضارب والخيام والخيل والجنايب المسومات، وانا اقسم بمن بسط الأرض ورفع السماء لا كنت بما وعدت كاذب ولا أخاف عتب عاتب وأكون كما قيل في الأمثال وللناس فيما يعشقون مذاهب.

* * *

«غالبة» تنقذ جندبة من مكر «جفال»

فلما سمعت العرب مقالة طمعت في أمواله وثارت رجاله وهمهمت أبطاله وزمجرت أقياله.

وكان في بني طيء يقال له جفال ويلقب بالمحتال وكان شنيع الخلقة، وكان لا يطمع في «سلمى» بالوصال، ولا يعد لها من الأشكال، فلما بذل الغطريف ما بذل أيقن جفال ببلوغ الآمال فنهض جفال على عجل، وقال ما تصلح سلمى إلا لي ثم ركب ناقته وودع أهل وعشيرته وصار يقطع الفيافي والقفار.

وبلغى «سلمى» أن جفال جد في طلب مزنة طمعًا في طلبها ففزعت وقالت: لا بلغ الله آماله في مزنة، ويزيد همه وغمه، ولا بلغ الله أبي آماله؛ لأنه يريد أن يعطيني لهذا الشيطان الفاجر المحتال الذي انسلخ في صورة إنسان بشوارب مريعة وريحة كريهة وأنف أعوج، وفك أفلج، لقد كنت لغيره أحوج وأنا أقسم بين مرج البحرين وأنار القمرين لأن وصل جفال بالفرس لأقتلن روحي قبل أن أدخل عليه، ثم بكت وتحسرت.

وسار جفال حتى وصل إلى ديار بني كلاب فوجد أربعين خشبة علها أربعين سلالاً وهم مصلوبين فسأل بعض العبيد عن ذلك الحال، فقال له: ما

في هؤلاء أحد إلا وهو سلال وقد جاء في طلب مزنة فوقع في هذه المحنة، فلما سمع جفال من العبد ذلك المقال علم أن الطلب إلى مزنة بعيد والوصول إليها صعب شديد، ثم إنه قال من لم يخاطر بالأرواح ما ينال «سلمى» الوصال ولو راحت روحي لأن سلمى وأنا أخاطر مثل الحور العين.

وكان جفال طويل الشيبة، مليح الهيبة، فلبس مسح أسود، وكشف رأسه، وكان له شعر طويل مثل أذناب الخيل ووجه أسود مثل سواد الليل، ثم إنه قوس ظهره وأرخى ذقنه وأسبل شعره على أكتافه ونفش لحيته وأرخاها على صدره ودخل الحي.

وكان له صوت جهير فأهاج الأحزان وأبكى الرجال والنسوان والشيوخ والشبان، ولم يبق أحد إلا ومضى نحوه وترامى عليه وقبل رجله ويداه، ثم إنهم قدموا له الزاد فامتنع من أكل الطعام، وعدل نحو الفلاة، ونظروا إلى طول شعره وخشونة بدنه وكبر آذانه.

فقالوا: هذا من أوتاد الأرض المستوحشين مع الوحوش السابحين ف طاعة رب العالمين، وكلما عف عنهم وهرب منهم ازدادوا فيه رغبة، وقصده جندبة.

ولما سمع صوته الشجي وقد سمعه وهو يقول هذا الكلام ويرد عليهم بزخاريف الأخبار فبكى عند ذلك الأمير جندبة من وعظه وحسن لفظه فجعل يتبرك به و يسأله الدعاء.

فلما رأت بني كلاب ذلك سألوا الأمير جندبة أن يسأله لعله يبات في خيامهم ويأكل من طعامهم فسعى جندبة إليه راجمًا وهو راجلاً، ونادى وهو يحسن ظنه فيه متوسلاً به وقال له: أيها العبد الصالح الساعي في المصالح أقسمت عليك بمن نزع قلبك حب الدنيا وألهمك بذكر الله وأشغلك بالعبادة والتقوى إلا أن تبيت في هذه الليلة عندنا وتأكل طعامنا لتعود بركتك علينا، ولعل الله أن يكفينا شر أنفسنا وسيئات أعمالنا، ويلهمنا التردد لآخرتنا، لقد بلغ كلامك في عقلي وودت أن أترك حب الدنيا من قلبي وأبكي على ما مضى من ذنبي.

فقال جفال: لقد أقسمت عليَّ بقسم عظيم سوف أبيت في خيامكم إلا على شرط أن لا آكل إلا مما تنبت الأرض في رؤوس الجبال، وبطون الأودية والتلال خوفًا من مناقشة الحساب وشدة العذاب.

فقال جندبة: يا سيدي لك الخير والكرامة والله يجمع بيننا وبينك يوم القيامة، وقد انتشبت مخالب الاحتيال، وأقبل على الأمير جندبة يعظه ويخوفه وهو يبكي وينتحب، ثم أقبل عليه وقال له: أيها الشيخ أنا أسهر الليل من خوفي على حجرتي، لقد طمعت فيها ملوك العربان وقصدتها السلاطين من كل مكان، فادع الله تعالى أن يحفظ هذه الفرس فما حفظه الله هو المحفوظ، وبعين عنايته ملحوظ.

فقال جفال: وأين أنت من اسم الله الأعظم الذي لا يحتاج معه إلى أقفال، لكن أريدك أن ترني هذه الحجرة، فإني أضع عليها يدي المباركة وأدعو بالاسم

الأعظم في أذنها، وأسأل الله تعالى في حفظها، فيبقى بينها وبين من يريد أخذها سد بولاد مما يحتاج معه إلى قيول ولا أقفال.

ففرح جندبة بمقاله وحمله إلى خيمته وجفال قد أضمر الغدر بمن أحسن فيه ظنه وهو يطلب منه غفلة يسرق منه مزنة وجعل يرتقب الليل وهو قائم على قدميه، ولم يزل على ذلك الحال ثلاثة أيام لم يذق فيها منام ولا طعام، ولا يمل من القيام والقعود.

فقال جندبة: والله لمثل هذا فليعمل العاملون، لقد ضاع زماني في محبة مزنة وحفظها، فلو أعطيت نفسي في أمورها كان أصلح لي ولها.

وكانت الليلة الرابعـــة جعل جفال يبكي في صـــلاته، ويظهر الخشوع في دعواته قال: فسأله الأمير جندبة عن أحواله مما رأى من توجعـــه وبلباله.

فقال له جفال: أكتم أمري أيها الأمير لأنني رأيت البشير النذير في المنام وهو يقول لي في ليلة غد تفارق الدنيا وتصل إليَّ عند المولى، وقد بكيت لهذا التأخير إلى ليلة غد إلا أن من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه وأسعده في قبره وما أشقاه.

فلما سمع الأمير جندبة هذا المقال بكى بكاء شديدًا وتعلق به وقال له: أيها السيد ادعو لي ولحجرتي مزنة من كل طارق وسارق.

فجعل جفال يدعو له إلى نصف الليل فغلب على الأمير جندبة النوم، فقام إلى محل منامه وكان قريب من محل جفال وانجضع ونام في محله، وكان

مفتاح قيد مزنة في ثوبه لا يأمن عليه أحدًا من رجال وأناسه، والقضاء المدبر عليه يضحك ولم يعلم بما دار الفلك به، فإنه قد انطلى عليه مقال جفال، وقد كثر عنده الخشوع والآلام فنام وعلا غطيطه فوثب جفال مثل الأسد، وقام إلى الشمعة فأطفأها ثم إنه أدخل يده تحت أذيال جندبة، وحل المفتاح من ثوبه، وقد احتوى عليه وخرج من باب المضرب فوجد مزنة في قيدها تلعب وغرتها تلوح مثل كوكب الصباح وعندها عشرة عبيد نيام والسيوف إلى أجنابهم وقد أنوا من جهة سيدهم واشتغاله بالعابد الزاهد الذي قد أحسن الظن فيه، وقربه إليه، وإن جفال قد فتح الأقفال وعزم أن يعلو على ظهر مزنة فحدثته نفسه بأمور شتى لم تكن في الحساب.

وكــــان السبب في ذلك أنه فزع من العبيد أن ينتبهوا ويقع به الصياح، وهو بين المضارب وتلك الخيام، فربط مزنة في أطناب الخيام وأخرج خنجرًا يماني من عمل «تبع بن جعفر» كأنه القضاء المنزل الذي لا مرد له ولا مدفع كيف ما مال قطع قد سقي بأنواع الموت، وسن على سن إطلاق الفوت، فذبح العشرة أسرع من طرفة عين وأراد أن يركب مزنة فوقف و قال : قد قتلت الجثة بقي رأسها، وإذا كان جندبة في الأحياء طيب فلا بد له من طلبي، ولا آمن من عطبي، ثم دخل المضرب، وقد خلت الرحمة من قلبه ومخافة الله عز وجل من سره ولبه، ثم إنه جلس على رأسه وأراد أن يوضع الخنجر على نحره وهم أن يذبحه كما فعل بالعبيد، إذ سمع معه في الخيمة كلام وقائل يقول له: اصبر ولا تعجل ففي طلبك أتيت والحمد لله الذي جمعني وإياك في هذا البيت.

وكان السبب في ذلك عجوز تسمى «غالبة» ابنة «عطارد» كان الأمير جندبة يناديها يا أماه، وكانت طاعنة في السن وهي صوامة قوامة، وكانت لا تدخل على ولدها إلا في كل سنة مرة واحدة وبقية السنة في محرابها راجعة ساجدة ولربها شاكرة.

فلما سمعت أن عند الأمير جندبة عابد زاهد وأن له ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب، وأنه يصبر على ذلك ثلاثين يومًا فقالت في نفسها: هذا من الأبدال، ثم إنها نادت لبعض إمائها وقالت لها: خذي بيدي إلى الخمية التي فيها ولدي فقد انفرد بهذا العابد عن نسائه وأولاده وأصحابه، وهذا هو الرأي السديد والأمر الرشيد، أخذ الله بيد ولدي إلى ما يحب ويريد.

قال: فوصلت بها الإماء إلى المضرب .

فقالت الأمة: إني أرى الخيمة مظلمة وما هي عادة هذا العابد في عبادته حتى إنه يخفى عن أعين الناس.

فلما دخلت الخيمة أحست بالزاهد في حركته فظنت أنه في عبادته فقالت: أيها العبد الصالح المطيع لربه السميع العليم ادعو لمن طال عمرها وكثر ذنبها وطال أملها وقصر عملها أن يغفر الله لها، وأدعو لولدي هذا النائم فإنه بحقي قائم وللطاعة ملازم، وهو يقري الضيفان، ويكسي العريان، ويعطي الفقير، ويجير المستجير، ويحسن الظن بكل مطيع للملك القدير، ويفك الأسير ويجود بالكثير.

فعند ذلك قال جفال: وكيف لا أدعو له وهذه الصفات صفاته فسوف أدعو لك ولولدك بطول العمر والبقاء، اذهبي بارك الله فيك، فلم تقدر أن تخالفه لعظم هيبته، فانصرفت وهي فرحة بدعوته.

هذا وجفال قد عزم على ذبح جندبة، وإذا به سمع وقع حوافر مزنة على باب الخيمة فخاف من فوات مراده فخرج على باب المضرب ليعلم الخبر، فلم يجد لمزنة خبر.

قال نجد: وكان السبب في ذلك أنه كان بأرض الشام رجل أمير يقال له صالح بن معن، وكان فارسًا لا يطاق ، علقم، مر المذاق، وهو صبح الوجه كريم اليد، طيب الأخلاق، كثير الرجال والأموال، سريع إجابة السؤال، وكان يحكم من القريتين إلى الرستيين إلى حماة، وكان يغزي إلى بلاد الروم محبة في الجهاد وطاعة لرب العباد، وكان مشغوفًا بحب الخيل لأن العز مقرونًا بنواصي الخيل، وكانت تجلب إليه من سائر البلاد، وهوي يبالغ في أثمانها ولو بلغت أوزانها رغبة في الجهاد على ظهورها.

واتصل إليه أخبار مزنة فرس الأمير جندبة فطاش عقله بوصفها، وقال: لو باعني إياها بوزنها ذهبًا لوزنت ذلك.

فقال له المخبران: صاحبها مقدم على عدد كثير من الأبطال والأقران، وله أموال تسد الفضاء والقيعان ولا سبيل له إلى البيع فيها لأنه بنفسه وماله يفديها، وقد صلب أربعين سلال واقتنص على ظهرها الأبطال وهي روحه الذي بين جنبيه، وما يحلف إلا بها.

فلما سمع الأمير صالح بذكرها ضاقت عليها الدنيا بما رحبت وتمنى أن الرجل لم يخبره بها.

فوثبت إليه عبد يقال «فاتك» وكان مثل اسمه يحاكي الليل في سواده، وإذا جرى يسبق الخيل فقال له: أيها الأمير إذا عز المطلوب ابذل المحبوب، وإذا بذلت ما أريد جئتك لما له تريد.

فقال له: ويحك اطلب ما شئت فإني أعطيك ما هويت!

فقال له: أعطيني ابنتك «سعدى» فإني أهيم بها وجدًا، وعندي منها مرض لا يهدأ.

وكانت سعدى ذات حسن وجمال وبهاء، وكمال أعذب من الزلال، ومن فرط محبة الأمير إلى فرس الأمير جندبة حلف يمين غير كاذب أنها إذا أتاه بالفرس حباه بابنته، وأضاف إليها شيئًا كثيرًا من نعمته.

فسار فاتك يطلب تلك البلاد وقد منع من جفنيه لذيذ الرقاد، وجدَّ العبد فاتك في سيره ليله ونهاره، حتى دخل إلى حي بني كلاب، وهو في زي طنجير من طناجير العرب، وكحل عينيه وحلق ذقنه، ولبس ثوب من ثياب النساء عريض الأكمام، وكان أسمر اللون مليح الكون، دقيق الخصر، كأنه من بعض الإناث لا فرق بينه وبين النساء.

وعرف موضع الأمير جندبة نهارًا وكرر نظره في مزنة مرارًا.

فلما انسدل الليل بالاعتكار وملأ بسواده الأقطار، وصبر فاتك إلى أن نام كل يقظان، وهجعت الرجال والنسوان، وخمدت النيران، قصد إلى المضرب

لينال من مزنة ما يريد، وكان وصوله في الوقت الذي ذبح جفال فيه العبيد، ودخل ليذبح جندبة فوجد فاتك الأمر قد تهيأ له، فعند ذلك دخل إلى المضرب واستوى على ظهر مزنة.

وسار فاتك وجد في سيره كما ذكرنا، وخرج جفال فوجد الفرس قد عدمت كما وصفنا فعلم أنه قد عدم التوفيق وقصده زحل في الطريق، فقال: إن هربت طلبت، وإن قعدت طلبت، وما لي إلا أن أقتل جندبة ليشتغل به أهل الحي عني من الطب، وآخذ أنا في الهرب، ولعلي أقتفي أثر مزنة، ولو بلغت إلى الأرض السابعة السفلى.

ولما عزم على قتله انتبه الأمير جندبة من رقدته فوجد الشمع مطفية، فأحس قلبه بالبلية، وافتقد المفتاح في وسطه، فلم يجده، فصاح صيحة عظيمة ونادى بالعبيد، فلم يجبه أحد فوثب وثبة الأسد، وقصد إلى المضرب، وطلب فاتك فلم يجده، فعلم أن الحيلة قد تمت عليه والبلية قد وصلت إليه، فنادى بالعابد فلم يجبه أحد، فنادى بغلمانه فلم يجبه أحد؛ فأحس قلبه بالبلاء فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، ولما صاح جندبة وسمعه جفال فطلب إلى نفسه النجاة، وركب على بعض جنائب جندبة وخرج هاربًا وسارة في الفلاة.

وأما جندبة فإنه لما نظر إلى عبيده مقتولين ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وطلب موضع مزنة، فما رأى لها خبر، ولا وقع لها على أثر، فتحير الأمير جندبة من هذا الأمر وصاح وحثا التراب على رأسه ونادى: يا آل كلاب! فثار الرجال من كل مكان وأجابوه من كل جانب وهم على الخيول والجنائب وهم

مثل السلاهب فأعلمهم بما جرى على مزنة فما أحد إلا وصعب عليه ما جرى على الأمير جندبة.

وتفرقوا في جميع الطرق وفي سائر المسالك.

وأما جندبة فإنه إخذ جماعة منهم وسار على غير طريق إلى أن انتصف النهار، ولم يجد أحدًا وتم إلى الظهر.

وأما جفال فإنه لما خرج من الخيام وهو مسلوب الفؤاد حيث إنه ما بلغ مراد ومن تمام القضاء فإنه سار على طريق العدو لأنه على ذلك علم أن بعض سلالين الشام أخذها.

وكان جفال قد تبع آثار مزنة فسار في طلبها وطمع في أخذها لأنه كان شجاعًا وبطلاً مناعًا، فسار ذلك اليوم إلى أن انتهى إلى أرض مزهرة الجنبات، مخضرة الربوات، فنزل هناكل جفال وهو لم ينظر إلى أحد يسأله عن ذلك الحال.

وفي ذلك الوقت وصل فاتك وقد أمن على نفسك وعلى مزنة من المهالك واطمأن على مزنة من كل آفة ومحنة وأطلقها في تلك الأرض ترى.

فلما نظر جفال إلى ذلك ركب على جواده وصاح على فاتك وقال له: يا ولد الزنا! ويا تربية الخنا! هيهات أن تفترس السباع، وتأكل الصباع، خل عن خيول الأعراب، وانج سالمًا من العذاب، فإن مزنة مهر سلمى فابعد عنها رغمًا فقال له فاتك، وقد ثار وعيناه مثل النار: يا نذل العرب! هيهات إن هي إلى مهر من هي أحسن وأوسم من معشوقتك سلمى!!

ثم إنهما حملا على بعضهما البعض واعتركا ساعة من الزمان على وجه الأرض، وسبق فاتك بضربة بخنجره في صدر جفال وكان الفال موكل بالمنطق؛ لأن جفال كذب على النبي ﷺ فرد الله تعالى قوله على نفسه، وأخذ فاتك مزنة والجواد بعد قتل جفال.

وسار يقطع البراري والقفار، وهو ينشد الأشعار، إلا أنه لما فرغ من نظامة الأشعار إلا وغبار قد ثار حتى سد الأقطار، وضربه الهوى فتقطع وبان ما كان خافيًا، وتأمله الناظر تأملاً شافيًا وإذا برجال إليه قاصدين وهم طلبه واردين والأمير جندبة في أوائلهم، وهو يصيح يا جامع الشتات ، يا محيي الأموات أعني على الأمور والمشكلات.

فلما سمعت مزنة صهيل الخيل من ورائها ضربت الأرض بحوافرها وجذبت عنانها من يد فاتك فألقته على وجه الأرض وأوسعت في البرية.

فلما رأى جندبة ذلك علم أن الخيل ما تلحق لها غبار، فأشار على قومه ألا يتبعها منهم أحد، وكانت به ألوف لأنه رباها وأكرمها، وكان في أكثر الأوقات يستدعيها فتأتي بسرعة، فلما سمعت صوته صهلت، ومالت إليه كما يميل الطفل إلى ثدي أمه، وجاءت إليه كأنها السهم المرسل أو القضاء المنزل، ووقفت بين يديه وجعلت تمرغ وجهها على قدميه وهو يقبل غرتها ويمسح بيده على ناصيتها، وقد أخذوا فاتك أسيرًا.

وقد رأى حندبة الزاهد وهو في دمه عفيرًا فسأل الأمير جندبة عن ذلك الفقير فأخبره فاتك بما كان، وأطلعه على ذلك الأمر والشأن، فقال له جندبة:

أما أنت فقد وهبتك نفسك؛ لأن الله سبحانه وتعالى جملك لنجاتي من هذا الغدار، ولك عليَّ أن أجمع بينك وبين محبوبتك «سمدى» وإلا أوهبتك بأمة أحسن منها، وقد جعلت أجرتك على قتل عدوي إطلاقك ورجع جندبة فرس وبعض مال وسار يقطع البراري والقفار.

* * *

جزاء النصيحة!!

وأما مقدم بني طي الغطريف فإنه وصل إليه الخبر بقتل جفال، واشتد به الوبال، وعلم أنه ما ينال من مزنة فجمع قومه وسائر عشيرته وشاورهم في أمره وقصته فقال له رجل شيخ كبير الشيبه كامل الهيبة: أيها الأمير من لم ينظر في العواقب ما الدهر له بصاحب و من عدل عن طريق الهدى لا شك أنه يقع في الردى، وعندي أمر رشيد أشير به عليك وهو إن قبلته نلت ما تريد، وهو رأي سديد!

فقال له الغطريف: قل ما تشاء، فما خاب من استشار لا سيما أهل العقول والأبصار.

فقال الشيخ: أيها الأمير انت بذلت سلمى لمن يأتيك بمزنة، فربما وصل إليها بعض العبيد، فيكون ذلك العار الشديد، وعندي من الرأي أن أسير إلى بني كلاب، وأصف لهم حسن سلمى ومنا نالت من الحسن والجمال، وإذا قال لي أميرهم ما تريد من المهر، وما يكون من الصداق؟ أقول ما نريد المهر إلا مزنة، ويكون مركوب بمركوب؛ لأن النجاح مقرون بالنكاح.

فقال الغطريف: أيها الشيخ لقد قلت الصواب، ولكن كيف يكون العمل إذا

ما هو رضي ولا أجاب؟ إيش يكون أكثر من هذا العار والذل والشنار؟ ما طرد الليل النهار.

فقال الشيخ: فليس علينا عار.

ولما سمع الغطريف كلامه ضم إليه خمسين عبدًا وألبسهم الثياب المنيحة والعمائم الحرير، وقد ومعه خمسين حصانًا عليهم أجلال الديباج المنسوجة بالذهب الوهاج وقال له: خذ هذه الخيل في صحبتك حتى يعلم جندبة أن مزنة ما هي كثير وتصغر في عينه وبعد ذلك أخبره عني وصف له حسبي و نسبي، وصف له ابنتي «سلمى» وما قد أعطيت من الحسن والجمال والعقل والكمال وما معها من الأموال.

وسار الشيخ وكان اسمه عوف ولم يزل سائرًا حتى وصل إلى حي بني كلاب فلما رأوه ومعه تلك الخيول الموسومة والعبيد عليها ركاب، فرحوا به المشايخ والجباب، وقالوا له: من أين أقبلت أيها الشيخ المليح صاحب اللسان الفصيح؟

فقال: من عند من ذكرهم فاخر الموصوفين عند سائر الأمم بالوفاء والكرم، فنحن من عند حاتم عصر وعنترة دهره البطل المماحك والليث الناسك الكثير الممالك «الغطريف بن مالك» قاصد إلى أميركم، وأرجوا الإعانة من كبيركم وصغيركم في أمر يكون فيه سروركم!

فقالوا له : أهلاً وسهلاً ومرحبًا بالقادم إلى الديار الناطق بأطيب الأخبار ها أبيات الأمير جندبة بين يديك، ونحن الجميع لك لا عليك؛ لأن أمرك إلى الصلاح كلل الله سعدك بالنجاح.

ثم ساروا به إلى جندبة وأعلموه بحاله وما معه من الخيل والعبيد والغلمان، فقال: يا ويلكم، احفظوا منه مزنة، لا يكون سلال، وقد أتى بالخداع والمحال!

فقالوا له: والله لقد تنغص عليك عيشك في النهار والليل إذ جعلت جميع الناس يسرقون الخيل!

ثم إن الأمير جندبة أمرهم بالطعام فأحضروه، وأكل الشيخ ومن معه حتى شبعوا وقام الشيخ عوف قائمًا على قدميه وقال: الحمد لله المحمود المستحق الحمد، غامر العباد بالفضل والجود شرف العبيد إذ بعث إليهم محمدًا ﷺ النبي المنتخب ورفعه إلى المكان المقرب، وفاز بما طلب وأخبر بما شاهد من القدرة والعجب، وجعل النجاح سببًا إلى كل سبب، وأبلغ إلى نيل الأرب فجعل الله العدو حبيبًا والبعيد قريبًا ولا تصلح الكريمة إلا الكريم، وكان من فضل الله وقدره أن الملك العادل الغطريف بن مالك الطائي قد خطبك يا جندبة لابنته ورآك كفؤًا لكريمته وزوجًا لعزيزته التي هي ظبية القناص، ودرة الغواص.

فتعجبت العرب من مقاله، وقاله له: لا فض الله فاك، ولا كان من يشناك، فقد أفصحت في مقالك، فأبشر ببلوغ آمالك.

فقال عوف: وكيف لا أكون فصيح اللسان وقد خطبت الثريا، وأصبح ميت المزار حيًا، وكويت قلوب الحاسدين كيًا، ولكن أريد أن أقول شيئًا!

فقالوا له: قل ما شئت، واذكر ما هويت.

فقال: ما أذكر خطابي حتى أسمع جوابي من الأمير جندبة.

فقال له جندبة: قل ما تريد، واذكره على رؤوس الأشهاد، وبين الحديث المفيد ففي مثل الغطريف يرغب الراغب وتحمل إليه الأموال والجنائب.

فلما سمع عوف ذلك فرح واستبشر وقال: يا مولاي يريد مركوب بمركوب، وقد حيا الله حسن يوسف بن يعقوب وجعله لك موهوب، فعجل بالصداق فليس في ذلك نفاق، وسوف تذكرني إذا رأيت وجهها الزائد الأشواق والإشراق!

فقال له جندبة: قل وأوجز.

فقال: نريد مزنة الكريمة مهر الدرة اليتيمة، لأن الغطريف قد سمع خطبرها، وقد هام بها لبه، واشتغل بها قلبه، وقد بذل ابنته لبلوغ أمنيته.

فلما سمع جندبة كلام الشيخ انقلبت عيناه في أم رأسه حتى خاف من سطوته جميع جلاسه، وقال: والله لو طلب الغطريف جميع ما أملكه لهان عليَّ إلا مزنة التي أكر بها على الأعداء لا كان ذلك أبدًا ولا يركبها سواي، وأنا في الدنيا والعين لا تعار للبكاء والسيف لا يدفع للأعداء، وما طلب الغطريف إلا قتلي، ولا يجمع شمله بشملي، ولولا قدومك إلينا، وواجب حقك علينا لعاد وباك قولك، وما به تكلمت وندمت على إبلاغ ما حملت، ومن أجل شهوة النكاح والجماع أدفع ما أعددته ليوم القراع، فارجع الآن خائبًا مما أملت، ثم صاح فيه وانصرف الشيخ من عنده خائب وقد استدت عليه جميع المذاهب، وسار بما معه من الأموال إلى أن وصل إلى بني طيء فالتقاه الغطريف وسلم عليه وقال: لقد أطلت الغيبة والمقام، وأطلقت في قلبي نار الغرام.

فقال الشيخ: والله يا مولاي لقد صدقت، ولما وصلت إلى حي بني كلاب فأجابوا القوم وقالوا: لو طلب الغطريف أموالنا ونياقنا قدمناها بين يديه، وكذلك قال جندبة إلا مزنة، فإنه ما يعلو ظهرها إنسان إلى أن تخرج الروح من الأبدان، وترمل النسوان.

فلما سمع الغطريف هذا الكلام صار الضياء في عينيه ظلامًا وصرخ حتى كادت مرارته تتفطر وقال: يا شيخ الضلالة ما قلت لك من الأول ما يجيب فأكثرت الخطاب، وما لك عندي جواب إلا هذا السيف القرضاب ثم أطاح رأسه عن بدنه.



يفدي نفسه برجله!

ثم إنه صاح في بني طيء بأخذ الأهبة إلى ثلاثة أيام، وقال لا بد لي أن أجعل بني كلاب طعامًا للذئاب.

فقام إليه عبد يسمى «ميمون» ويلقب بالهايج وكان فصيح اللسان شجاعًا في الميدان وكان سلال خيل غادر، وشيطان، وكان مشغوفًا بمحبة النسوان، فقال له: يا مولاي قد سمعت أنك قد بذلت ابنتك لمن يأتيك بمزنة!

فقال له: لو كنت أنت يا ميمون، ولك معها من الجمال والعبيد ما تريد.

فقال له: يا مولاي ! تحلف لي بخالق الليل والنهار؟

فقال الغطريف: وحق من أعشب البقاء إن أنت أتيتني بمزنة فلك ابنتي «سلمى» ومعها شيء من المال والعبيد، وأرفعك على سائر الأبطال الصناديد.

فلما سمع ميمون كلامه عزم على المسير إلى حي بني كلاب، ثم صاح الغطريف بابنته «سلمى» فخرجت مثل غصن البان أو غزال عطشان وهي في قميص شعر أسود وهي في بياض ودلال ذات جسم ناعم رابية المعاصم لحظها أمضى من الصوارم يسبى عقلها أو لفظها عقل اللبيب الحازم فقال لها الغطريف: يا بنية قد زوجتك بمن يأتيني بمزنة.

فقالت: يا أبتاه ما للبنات اعتراض الأبوان، ولو زوجتني بأقل العبيد كنت له أمة.

فقال لها: بارك الله فيك.

فقال ميمون: يا مولاي أريد منك ثياب وفرس سابقة، فلعلي أقدر على مثل الذي طلبته مني.

فلما سمع الفطريف من العبد ذلك الكلام أمر له بجواد سابق، وعمامة مطرزة بالذهب، وكسوة كاملة، وحلة من أحسن ملابسه، فأخذ العبد الجميع وخرج في الليل بعد أن ودع أهله ولبسهما وسار يقطع البراري والقفار والسهول والأوعار وهو فرحان.

وما زال ميمون يجد السير وهو طالب حي بني كلاب وهو ينظم ويرتب في مدحهم القصائد والأشعار من فكرته ويترتب قوافيها ويصححها على نفسها ويجليها.

ولما وصل إلى الحلة كان بالاتفاق ركب ذلك اليوم الأمير جندبة في أهل قبيلته وعشيرته.

وكان السبب في ذلك أن جندبة بعد مسير الشيخ من عنده أقبل على بني كلاب وقال لهم: يا بني عمي اعلموا أن الشيخ سار إلى بني طيء يحميهم بالكلام، وسوف يسوق إلينا الرجال ومزنة ما هي لأميركم، ولست بأخير منكم، وأنا كأحدكم، وأنا أعلم أن القوم يطلبوها وأنا لو بقيت على ظهرها وحدي ما أسلمها إلى أن أشرب كأس الحمام، وإذا رأيت الموت أطلقت لها العنان،

وخليت الديار والأوطان، فماذا أنتم فاعلون؟

فقالوا كلهم على لسان واحد: أيها الأمير لقد أفسدت فينا الاعتقاد وحق رافع السبع الشداد، ولو مالت علينا الجبال ما ترى أحدًا يصل إلى عبد من عبيدنا فكيف أنت أيها ا لمولى المجيد، ولو أن الغطريف في عدد ثمود وعاد لا بد من ضربه بالسيوف الحداد، ونحن ما نقيم في الديار حتى يأتي هو إلينا ولكنا نسير إليه لأن العرب لا تغزى في ديارهم.

ثم إن جندبة ركب في ذلك اليوم الذي قد ذكرنا وركبوا معه أهل قبيلته، وظلوا سائرين إذ لاح لهم فارس من بعيد وعليه ثوب معلم بالذهب.

ولما أن قرب منهم فصلت مزنة من تحت جندبة وجعلت تضرب الأرض بحوافرها.

فقال بنو كلاب: لا بد أن تكون هذه طليعة جيش بني طيء وما هو إلا سلال خيل فسوف يبان لكم الحال.

فبينما هم في ذلك الكلام وإذا بميمون قد أقبل.

ولما أن رآهم ورأى ذلك الجحفل ميل إليهم وقدم إلى أن قرب منهم ونادى وقال: حياكم الله بالتحيات وخصكم بالسلام، وقضى لدولتكم بالدوام، ولغيركم بالذل والإرغام، وأسبل عليكم سحائب الإنعام؛ لأن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق بقدرته واصطفاهم من سائر بريته أقوام للخير أهلاً في سائر البناء والأكام فهم للخيرات مفاتيح وللمكرمات مصابيح.

ولما فرغ ميمون من شعره وهذيانه شكروه بنو كلاب وأثنوا عليه.

وما بقي أحد من بني كلاب إلا وأثنى عليه إلا الأمير جندبة فإنه قال للعبد: غض عني بصرك يا ولد الزنا! وتربية هذا الخنا! لمثلي يقال هذا المقال؟ أتظن انبي انخدع لهذيانك أو يجوز على أذني شقشقة لسانك.

ثم إن الأمير جندبة بعد ذلك الكلام صاح على العبيد وقال لهم: خذوه وعن جواده رجلوه، فتبادرت إليه العبيد من كل جانب وانقضوا عليه مثل السلاهب وفي عاجل الحال أخذوه وعن جواده رجلوه، وقد أوجعوه بالضرب فزاد به عند ذلك البلاء والكرب.

فلما أن رأت بنو كلاب إلى ما فعل الأمير قالوا: ما هذا صواب منك، واعلم أنك بهذه الفعال تلومنا وتذمنا عليه سائر الأعراب، ولا بد أن يشيع خبرنا الشنيع في الآفاق مع السفار والطراق، وتمتنع عنا سائر الشعراء والقصاد.

فلما أن سمع ميمون منهم ذلك الكلام أسبل الدموع وقال لهم: يا طول تأسفي يا سادات العرب وأهل الفضل والأدب في طول الزمان، هل سمعتم من أحد أن مادحًا أتى إلى سادات مثلكم ومدحهم بمثل هذا المقال لأجل طلب العطاء من الأمراء الكرام فعاملوه مثل هذه المعاملة؟ هذا وأنتم سادات العربان الجياد الموصوفين بالكرم والإرفاد وحل المشكلات الشداد.

ثم قال لهم: بالله عليكم يا قوم عجلوا بقتلي، واعلموا أن ورائي أولاد صغار فاقتلوني فورًا لأن ذلك يزيد انتهاك أهلي من قلة من يأتيهم بالقوت، ودعوا اولادي وبناتي يبقوا من بعدي أيتام فهو أهون من هذا الارتباك، فياليت شعري ما ذنبي عندكم غير مدحكم فيا ليت السباع أكلوني ولا يقال بنو كلاب قتلوني، ثم بكى.

وما زال ميمون يبكي إلى أن أبكى العيون، وقد أظهر للقوم الشجون، ولم يبق أحد من بني كلاب إلا وبكى.

وبعد ذلك أقبلوا على جندبة بالعتاب والملام وقالوا: والله يا أمير ما نسمع العرب عنا بأقبح من هذا الخبر، ولا أشنع منه، وما فيهم إلا من لام جندبة وقالوا له: والله أيها الأمير إيش الذي ألجأك إلى هذا الحساب الذميم حتى تجعل الشعراء كلهم سلالين فقد قيل في الأمثال «إن المحبة محنة»، وقد قال النبي ﷺ «حبك للشيء يعمي ويصم».

واعلم أن الصواب أيها الأمير أن تطلق هذا الرجل من الاعتقال وتدعه يمضي إلى حال سبيله من غير إحسان ولا توثقه وعن أولاده لا تعوقه، ولا تتعرض له في مسيره؛ لأنه داير على قوته.

فلما سمع جندبة من قومه ذلك الكلام قال لهم: صدق رسول الله ﷺ لأنه قال «الحرب خدعة»، ووالله لقد عمل معكم كلام هذا العبد ولد الزنا على أن الحزم سوء الظن، وإن كان ولا بد من هذه الفعال فأنا ما أقتله بل إنني أدعه عندي في الاعتقال وأسير إلى بني طيء من يكشف لي عن هذا الحال، ويبصر ما يكون من الخبر؛ لأن لي في بني طيء أصحاب لا يخفون عني شيء، فإن كان الذي خطر ببالي صحيح ضربت رقبته وجازيته على فعلته، وإن كان غير علمت أن الذي خطر على بالي محال، فعند ذلك أخلع عليه وأبذل له من المال شيئًا كثيرًا، ولا يلومني منكم أحد إن أخذت حذري على مالي ونفسي؛ لأن ما يأخذ هذه الفرس إلا الذي يقتلني، واعلموا أن هذا كله حذر على مالي وروحي.

ثم إن الأمير جندبة لما رجع إلى الحي أنفذ من عبيده جماعة إلى بني طيء، وأقام على بعض الغدران إلى أن غربت الشمس، وارتحل إلى الحي.

ولما دخل على حيه أقبل على العبد ميمون وقال له: والله إن قلبي حدثني عنك بالغدر، وأنا أريد أن أقيدك مع مزنة ا لتي هي سبب هذه الفعلة، وقد جئت في طلبها حتى تعظم عليك المصيبة والمحنة.

ثم إن الأمير جندبة أمر بقيدين فأحضروا له ما طلب، ولما حضرت القيود جعل القيد الواحد في يد مزنة والقيد الثاني في رجل ميمون وأوصله بقيد مزنة وقد وكل به العبيد ومضى جندبة إلى فراشه ونام في مضربه ونامت الناس هم في الخيام.

فهذا ما كان من الأمير جندبة البطل الهمام، وأما ما كان من العبد ميمون السلال نسل الحرام فإنه أقبل على العبيد الموكلين به وجعل يحادثهم لما أن أظلم الظلام وصار ينشد لهم الأشعار، ويحكي لهم ما جرى للملوك القدماء الماضيين الكبار، ويروي عنهم الأخبار وعن غيرهم من المسلمين والكفار، وما جرى للمتقدمين من العجائب والأهوال، وما زال يسامرهم بمثل هذا الهذيان والمحال، فأنسوا إليه العبيد، وقد حنوا وشفقوا عليه؛ لأن الجنس يحن إلى الجنس وقالوا: والله ما هذا إلا شاعر حاز جميع الفضائل من الجواهر، وإن أميرنا جندبة ما هو إلا خفيف العقل..

ثم إن العبيد بعد ذلك حط عليهم النعاس، فناموا وقد غرقوا في نومهم وعلا غطيطهم وكان ميمون لم ينم وهو في قهر وافتقار لما رأى تلك العبيد ناموا قال في نفسه: هذا والله وقت انتهاز الفرصة، والخلاص من هذه الفصة

فإن ما بقي من عمري إلا بمقدار ما يصل الخبر إلى جندبة بأني سلال لهو يصلبني على رؤوس الجبال، وينزل بي الخبال، ثم إنه عافر في القيد ليفتح الأقفال فعسر عليه ذلك، وكان معه خنجرًا أمضى من القضاء والقدر وهو مجزم به تحت الثياب وأنهم ما فتشوه لما أن قبضوه، وكانوا قد أنساهم الله ذلك فعالج القيد الذي في رجليه ورجل مزنة فما قدر على فتح فاحتار في أمره وقد عيل صبره فقال في نفسه: إن قطع الرجل لم يضر ويعيش بعدها الإنسان إلا قطع العنق يموت منه الإنسان، ثم إنه قال ما يكون لي خلاص إلا إذا قطعت رجلي أو يد مزنة، ولكن إن قطعت يد مزنة لا يبقى منها فائدة أبدًا وخسارة والله قطع يدها لأنها فرس جيدة، ولكن اقطعَ أنت رجلك، ثم إنه كبس بعد ذلك على قدمه بذلك الخنجر فوصل الوجع إلى قلبه فصبر على نفسه على الوجع القليل، ولا يصبر على ضرب الرقبة فيصبح قتيلاً، ثم إنه قطع رجله وقال: وجع الرجل ولا الموت.

ثم إنه عزل قدمه عن مكانه، ولما خلصه غشي عليه ساعة وأفاق وصحى على نفسه، ثم إنه قفز على ظهر مزنة وقد رأى كوكب الصبح قد طلع، وأراد أن يعلو مزنة فاسترخى وما قدر على الركوب فأيس من نفسه، وقد استسلم للقضاء والقدر، وقد تراخى ولا بقي له همة أن يمسك بها نفسه.

ولما أن رأى روحه على تلك الحالة تأسف على روحه وقال في نفسه: تذوق وجع قطع الرجل، وتخلي بعد ذلك جندبة يتفكه فيك ويقتلك، لكن قم وشد عزمك لأن الرجال الصناديد ما افتخرت إلا بالصبر على سائر الأهوال.

ثم إنه شد حيله وقطع قطعة من عمامته ولفها على رجله وقام وتطوح على

ظهر مزنة وقال: متى ما نفدت بها من الحي فزت بنفسك، وتكون قد نلت المنى والأرب، وبلغت ما تتمناه ويموت جندبة غبينه من شدة الغيظ، ودعه يموت من الغضب وأكون أنا قد أخذت محبوبتي، وبلغت الأرب.

ثم إن ميمون لما علا على ظهر مزنة أخذها وخرج من الحي.

ولما صار خارج الحي صاح عليها فطار به بين السماء والأرض، وصارت في البيداء كأنها القضاء المنقض من الهوى أو النجم إذا نزل من السماء.



أنقذ نفسه من القتل بالموت!!

فهذا ما كان من ميمون وأما ما كان من جندبة فإنه لما أصبح الصباح وأضاء بنوره و لاح أتى إلى المضرب الذي فيه مزنة والعبد لينظرهما ويزول برؤية مزنة همه وغمه.

ولما صار في المضرب فلم يجد العبد ولا وجد مزنة فصاح: يا لكلاب! يا لكلاب!

فجاءته الخيل مثل السلاهب من كل ناحية وجانب وهم يقولون له: لبيك! ولما أن صاروا عنده قالوا له: ما الخبر؟

فقال لهم: انظروا إلى هذا العبد الشاعر الذي لمتوني من أجله كيف قطع رجله وخلص روح من القيد وأخذ مزنة، وراح بها من هذا الحي!

فقالت له بنو كلاب: والله ما كان رأيك إلا صواب وقولك إنه سلال.

ثم إن القوم تفرقوا في جوانب البر لما أن خرجوا من الحي فكانوا كما قيل في الأمثال «وأين الثريا من يد المتناول».

وأما جندبة فإنه سار في تلك البراري والقفار وهو يسير تارة يمينًا وتارة يسارًا، فلم يجد أحدًا يسأله عن خبر مزنة فرجع وهو مذهول وقد ذهب عقله.

ولما رجع جندبة هو وقومه إلى الحي وما فيهم من ظفر بطايل فاقام وهو كسير الحسرات دائم الزفرات وهو نادم على ما فات، وقد طلب الأمير «عوف بن عامر الكلابي» ليعاتبه في أمر ميمون ويعرفه قوله؛ لأنه كان من جملة من لامه فما وجده.

وكان السبب في ذلك وهو أنه لما سمع الأمير عوف الصياح وأخبروه بما فعل العبد فندم على ما صنع لأنه كان قد لام جندبة فيما فعله مع العبد ميمون، كما أنه قال له: هذا نحن لا بد لنا أن نرد الضال، فبالله عليك لا تفعل هذه الفعال التي لا يفعلها إلا أهل البخل الأنذال في حق الشعراء وأصحاب المقال الذي يأتوا للوفد والسؤال من الفاقة وضيق الحال والقلق والوبال، وسوف يظهر هذا عليك بين العرب، وتكسب من الذل أذل مكسب.

ولما جرى ما جرى قال عوف: صدق النبي ﷺ «إن الحرب خدعة».

وكان تحته جواد من جياد الخيل بريء من العيوب معود صاحبه أن يقتنص عليه الغزلان، وهو يوثب وثبات النمر الحردان في الصحصحان كأنه من شدة الانطلاق والانطواء تعبان وهو في المراوغة مقلبان، يضيق عند خطواته الميدان، وتطوى له الأرض وقت الجريان إلا أن الأمير عامر عمد إلى ذلك المهر وكان يسبي الغمام وهو من الخيل الكرام، وكان يقارب مزنة في الجريان فركبه عوف بن عامر وسار وقد حلف أنه ما يرجع إلا بأخبار مزنة، ولو أنه يقع كل يوم في ألف محنة.

ثم إنه سار وتبع أثر مزنة، وكان ميمون لما أخذ مزنة وسار بها ما هو ثابت على ظهرها إلا غصبًا لأنه في راحة من رجع رجله المقطوعة، وهو يعالج سكرات الموت منها وهو في محنة، ولولا أنه كان أشجع فرسان بني طيء ما كان ثبت على ظهرها لأنها مثل النمر في قفزاتها، ومثل الثعلب في همزاتها، ولم يزل كذلك وهو يكد طول الليل إلى أن أصبح الله تعالى بالصباح واضاء بنوره ولاح.

وكــــان الأمير عوف لما ركب مهره وخرج من حيه ما زال يقص أثر مزنة، وهــــو تابــــع لها وهو يجد على جواده، وكان عوف خيال من بين أقرانه، فقارب مزنة وبقي بينه وبينها شيء يسير لأن العبد ما كان يعوقه إلا قطع رجله؛ فنظر عند الصباح إلى خلفه فوجد فارسًا خلفه يكد السيد وهو لاحقه وطالب أثره.

ولما أن نظر ميمون إلى ذلك الفارس المقبل من خلفه فقال في نفسه: ما داء هذا الفارس خلفي ما أبالي به إن كان صاحب أو عدو محارب ما آمن منه من النوائب.

ثم إن ميمون عطف راجعًا إلى ورائه ونظر إلى الأمير عوف، وما زال أن أدركه وحاذاه، فأنكر أمره ووقف ليراه، ويعرف من يكون؟

ولما أن صار قريبًا منه عرفه أنه هو الذي كان يحاجج عنه الأمير جندبة، وهو الأمير عوف بن عامر صاحب أشرف مرتبة عند الأمير جندبة، ولما أن عرفه ميمون أرما نفسه من على ظهر مزنة إلى الأرض وبكى وقال: والله يا مولاي أنت حمية الدار والضيوف أيها الأمير الخطار، قد حميتني من الأمير

جندبة لما أراد أن يضرب رقبتي بالحسام البتار، واعلم أنني ما رجعت إلى الدار إلى من أجلك، لما علمت أن الأمير جندبة يلومك فاردت أن لا يلاحقك عتب ولا لوم من جهتي، ولولاك ما رجعت بعد أن ملكت مزنة، واعلم أني ما فعلت هذه الفعال إلا حتى لا يرجع الأمير جندبة على الشعراء بالملام، ويكثر في حقهم الكلام، ويوقعهم في الخبال، ويجعل كل قاصد سارق محتال، وأنت الآن قد قربت على الطريق، والآن ما أسلمك مزنة حتى إنك تحلف لي أن تأخذ لي حق رجلي ودواها من الأمير جندبة، وإن كان ما تفعل ذلك أخذتها، وطنبت أهلي وتكون هي عن رجلي ولا يرجع الأمير جندبة يراها، وأبلغ نفسي مناها.

ثم إنه قفز وركب على ظهرها وهو يبكي وينتحب.

ولما سمع الأمير عوف بن عامر ما تكلم بها ميمون بكى بكاء شديدًا ما عليه من مزيد، وقد رق له قلبه لما أن مدحه بتلك الأبيات، واستحسن هذا الكلام من عبد وهو معدود من جملة العبيد.

ثم إنه نزل إليه واستقبله أحسن استقبال وقال له: والله يا شاعر ما جندبة الذي ذكرته إلا رجل بدوي، وهو من الفحول الأبطال، ولكن انزل وأبشر ببلوغ الآمال والعطايا، ولا بد أن أدفع لك أنا شيئًا يغنيك إلى الأبد، وينفعك إلى ولد الولد.

ثم إن الأمير عوف بن عامر هم أن يركب في ساعة الحال على ظهر الفرس مزنة ويطلب ناحية الحلة وتلك الجبال..

فعند ذلك غافله العبد ميمون ابن اللئام الأنذال وضربه بخنجر كان معه، وقد أعده لتلك الأشغال وينفعه لمثل تلك الفعال التي هي ليست فعال أولاد الحلال، وقد تركي مرمي على الرمال في تلك الجبال، وخلاه مطرودًا في تلك الأرض القفر الخوال.

ثم إن ذلك العبد ابن اللئام الأنذال الذي يستحق القتل على كل حال ركب على ظهر الفرس مزنة وسار يقطع الفيافي والقفار والسهول والأوغار وهو يقطع الأميال والمناهل وما زال سائرًا، وقد فات كل قبيلة وحي وجد في مسيره طالبًا ديار بني طيء، والعبد الملعون ابن الملعون ميمون عليه الخزي ممن يقول للشيء كن فيكون؛ لأن الله تعالى يجازي العبد على ما يفعل من الأعمال.

ثم إن ميمون وصل إلى بني طيء واقتحم ودخل إلى وسط الحي وعلمو بوصوله، فخرجوا إلى لقائه كل من في الحلة، وركب الفطريف في رجاله، وكان يوم دخوله يومًا مشهودًا عجيبًا ضربت فيه الإماء بالدفوف والمزاهر، وانتشر الفرح في القبائل والعشائر، وكان وصوله من أرض بني كلاب في أربعة أيام، وكانت المسافة بينهم سبعة أيام، إلا أنه لما وصل طلب شيئًا من الطعام لأنه كان قد تخلا عن روحه من قلة الأكل ونزول الدم؛ لأنه ما كان له قوت إلا من حشائش الأرض، فقدموا له الطعام والشراب، ووقف الفطريف في خدمته، وكان قد قبَّل بين عيني مزنة وجعل في عنقها قلادة من الجواهر، وجعل على ظهرها جل من الإبريسم.

فقال ميمون: يا مولاي! هذا الجواد الذي كان تحتي يقارب مزنة في الجري خذه إليك فإن عشت كويت به الأعداء، وإن مت فأنت به أولى ثم إنه بكى وعلم أنه من الموتى.

فقال له الغطريف: يا ميمون! وحق من لا تراه العيون ولا يلحقه ريب المنون لا كانت «سلمى» إلا زوجتك وما هي دون البرايا إلا قرينتك، وإني قد قبضت صداقها «مزنة» فأنت لها بعلاً، وهي لك أهلاً.

ثم إن الغطريف نادى بالجارية فأقبلت إليه ووجهها يتلألأ نورًا وهي فائقة الجمال، بادية الكمال، تربية الدلال، ثقيلة الأطراف، لينة الأعطاف.

فقال له الغطريف: يا ميمون هذه زوجتك خذها إليك.

فقالت الجارية: يا أبت أما تستحي من العار أن تزوجني بالعبيد، وتدع الأبطال الصناديد؟!

فقال لها الغطريف: يا بنية! أما قولك بأنه عبد فإنه من أولاد آدم، والمرأة لا تكون لزوجها إلا طائعة فكوني له سامعة، ولا تجاوبيني في الكلام، وإلا أفلق رأسك بهذا ا لحسام،

ثم صاح: يا ميمون هذه زوجتك، فأنت الكريم صاحب الشرع قد أقمع أنف الغيرة قمعًا فعند ذلك دخلت على ميمون فوضع رأسه على حجرها بعدما قبلها وهو في غمرات الموت، وكلما عانقها أنشد يقول:

لقــد لقــينا الأهوال حــينًا فــحــينًا
وتعــبنا لغـــيـــرنا وشـــقـــينا
التـــقـــينا ومـــا شـــفـــينا غليـــلاً
وافـــتـــرقنا كـــأننا مـــا التـــقـــينا

ثم شهق شهقة خرجت روحه فيها.

وأما سلمى فإنها فرحت بذلك فرحًا شديدًا وعلم الغطريف بموته، فحز عليه لأجل إقدامه على الأهوال وصبره على لقاء الرجال.

وكان الغطريف لما أتاه ميمون بمزنة والغمام بقي متحيرًا فيمن يجعل سايسًا لهما فأشار عليه ميمون قبل أن يموت أن يجعل عليهما أخوه المسمى بزيتون، وآخر يقال له «زند الفيل» فلعل ذلك.

فلما مات ميمون طمع زيتون في أخذ سلمى فأقبل على مولاه الملك الغطريف وقال له: أيها الملك إن أخي ميمون قد قطعت رجله وقضى نحبه في أخذ «مزنة» وقد توفي إلى رحمة الله تعالى وسلمى زوجته وأنا أولى بزوجة أخي.

قال: فلم يرد جوابًا عليه، فتركه أيامًا وأعاد عليه القول.

فقال له: إن رجعت إلى مثل هذا الكلام سقيتك كؤوس الحمام.



فغضب زيتون من كلامه واقبل على زند الفنل، وقال له: يا أخي! إن الغطريف قد غدر، وأنا اريد ان آخذ مزنة والغمام، وامضي واسير إلى بني كلاب واردهما إلى جندبة واعيش انا وانت عنده في احسن حال، وانعم بال.

فقال له زند الفيل: افعل ما تريد.

* * *

موت العبيد ورجوع الأخ الفقيد

فصبروا إلى الليل وساروا وهم على ظهور الخيل وأصبح الغطريف أن يركب إلى الصيد والقنص، فلم يجد الخيل، فقال: ربما يكونون في بعض المراعي، فأنفذ الخيل إلى المراعي ففابوا وعادوا بغير طائل، فبكى الغطريف من شدة القهر، وتفرقت الخيل في البراري وعادت بلا فائدة.

وأما زيتون وزند الفيل فإنهما ساروا حتى وصلوا قريبًا من حي بني كلاب، فقال زيتون في نفسه: إذا وصلت إليهم وهذا العبد معي على هذه الصفة يقولون إنه مثلي وشكلي، فقال لزند الفيل: اركب خلفي كأنك غلامي؛ لأنك صاحب ميمون وأنا أخوه.

فقال زند الفيل: لا تكن أحمق! أنا عبد ميمون وصاحبه في كل وقت، وأنت مثل الهوى.

فغضب زيتون وأضمر له الشر، وصبر عليه إلى أن نزلا على الغدير وقفز عليه بخنجره وطلبه ثم ضربه ضربة مكينة فقتله، فمن حلاوة الروح وثب الآخر إليه ثم ضربه في فؤاده صرعه فماتوا من ساعتهما الاثنين، فطلبت

مزنة المراعي التي لبني كلاب وتبعها الغمام.

فهـذا ما جرى لهؤلاء، وأما جندبة فإنه لما أن فقد مزنة تنغص عليه عيشه، ورأى الأمير عامر بن عوف قتيلاً فبكى عليه وعاد إلى الحين وحزن على مزنة وعلى عامر وأقام على ذلك أيامًا وهو يستنجد بقبائل بني كلاب وبني عامر.

فبينما الأمير جندبة نائم في منامه ولذيذ أحلامه إذ رأى رجلاً مليح الصفة، كثير المعرفة راكب على فرس زحمر، وبيده رمح أسمر متلقدًا بسيف من جوهر، فسلم على جندبة فهابه وأراد أن يسأله عن حاله.

فقال له الفارس: يا جندبة كف عما أنت فيه من هذا الحزن على مزنة، فإن الله يردها عليك.

فقال له: من أنت؟

فقال: أنا أبوك الذي خلفتك في بطن أمك، وقد خلفت لك أخ آخر، وهو يعيش عيشة الذل والإرغام كما تعيش الصعاليك والأيتام.

فبكى جندبة ثم قال: وأين أطلبه يا أبتاه؟

قال: إن الله يسوقك إليه عن قريب من غير تعب، فاركب غدًا إلى الفلاة لعلك تصل به نسبك وتقر به عينك، وتقيم ملكك، وتغنيه بعد فقره.

فأصبح جندبة خائفًا من هذا المنام، وقال: هذه أضغاث أحلام، ثم إنه ركب في جماعة من بني عمه، وخرج من الحي إلى البرية، وإذا هو

بمطية في عرض البر فرآها فإذا وراءها فارس ضعيف على فرس ضعيف عليه أثواب رثة، وبيده رمح معصب بالعصب، وهو سائر على مهر؛ فأمر جندبة بعض بني عمه من بني كلاب أن يأتيه بالفارس، فلم تكن إلا ساعة حتى أتاه به.

فلما أوقفه قدامه قال له جندبة: ما شأنك أيها الفارس الوحيد في هذه القفار؟

فقـــال له: أيها الأمير المهاب! أنا قاصد بني كلاب السادات الأنجاب، طالب أميرها وحاكمها ومشيرها الأمير جندبة بن الحارث، إنه أخي في النسب!

فقال له جندبة وقد صح عنده المنام، وفرح : فكيف ذلك يا غلام؟

فقال له: اعلم أيها الأمير أن أمي من بني النضر، وكان الحارث قد أخذها من قديم الزمان، وتزوجها كما أراد الملك العلام، وأقامت عنده إلى أن طرقه طارق الحمام، وعلمت بموته قبائل العربان، فتحركت عندهم الأحقاد القديمة والأضغان، فعولوا على غزو عشيرته بعد موته، فسمعت والدتي ذلك الخبر فخافت من السبي والضرر، فهربت إلى بعض أحياء العرب، وولدتني وتربيت إلى أن تولى عني الفطام.

فأقمت أرعى الجمال وأنا مستور الحال، وهي لا تعرفني نسبي، ولا من هو أبي إلى أن دعاها داعي الحمام فقال لي: يا ولدي أنا اليوم أموت وأنت اليوم لك ملك كبير، وسيد خطير وهو أخوك وولد أبوك.

فقلت لها: ومن هو أخي وما معنى ذلك الكلام؟

فقصت عليه قصتها على التمام.

ثم إنه أعلم جندبة الحرز الذي كتبه الكاهن في ذلك الزمان والإشارة المماثلة إلى سائر الألوان، وإني لما سمعت ذلك أقمت إلى أن ماتت ودفنتها، وكانت هذه الجارية التي معي ابنة خالي، وهي ذات حسن وجمال وبهاء وكمال.

فلما ماتت أمي مات بعدها أبوها وخلف هذه الناقة والفرس، فلما مات أخذناهم وأتينا إلى هذه الديار، وهذه أمورنا والأخبار.

فلما سمع جندبة هذا الكلام صح عنده المنام، ونادى: يا لكلاب! صح المنام، وما خاب.

ثم إنه قص على القوم قصته، وصدق أخيه في مقالته، وترجل إليه وضمه إلى صدره، وسلم عليه وفرح به، وقال لعبيده: اذهبوا به إلى بيتي واضربوا له المضارب الخاصة التي هي لأهل الاختصاص، ثم سلم إليه النوق والجمال والخيل والأموال والظرايف الغوال.

فبينما هو في بعض الأيام وإذا هو بالصياح عالٍ والصراخ نامي، فركب بعض الجنايب وسأل عن الخبر فقيل له: إن أخاك عطاف قد قصد البر يتصيد فرأى مزنة والغمام وهما في الخيرات والإنعام بلا سائق يسوق، ولا عائق يعوق، فعندها خرج جندبة إلى ظاهر الحي، فرأى مزنة وهي قد اقبلت إلى الأرض والبر بالصهيل وهي تضرب الأرض برجليها.

فلما رأت جندبة أقبلت إليه إقبال الولد على والده وجعلت تحمحم عليه وتمرغ وجهها على قدميه، فصار يبكي من شدة فرحه بها، ثم سجد شاكرًا لله تعالى، ودفع لأخيه الأموال، ثم رجع هو وإياها إلى الحي وأقام في أطيب عيش، فهذا ما كان من هؤلاء.

* * *

الشيخ الذي يعمى بالنهار ويبصر بالليل!!

وأما ما كان من الملك الغطريف فإنه لما فقد مزنة والغمام لزم الأحزان، وحرم على نفسه المنام، فأقبل عليه في بعض الأيام شيخ أعور، أفلج، أفطس، أزرق العينين، أغبر كأنه من عفاريت بني منقر، فقال له: أيها الملك! أنا آتيك بمزنة والغمام، فما الذي تعطيني من الإنعام؟

فقال: وحق ذو الجلال والإكرام لو طلبت روحي دفعتها إليك أو مملكتي تركتها لديك!

فقال : يا ملك أريد ما أراد ميمون!!

فقال : وحق من لا تراه العيون ولا تخالطه الظنون إن سلمى لك إن أتيتني بالذي أريد .

ثم عاهده على ذلك، وكان الرجل اسمه «جمرة الحداد» وكان كما ذكرنا قبيح المنظر قد أخذ من الاسد وثبته ومن الثعلب زوغته ومن الغزال خفته .

ولما بلغ سلمى أن أباها قد زوجها بجمرة الحداد بكت وتأوهت وتحسرت، ونادت : يا رب العباد أطلب منك الخلاص من هؤلاء الأوغاد، ويلك يا غطريف لا بلغك الله أمل! ولا أنجح لك عمل، لقد نزلت عن حد المروءة، ونسيت النخوة

العربية، وأبخست الدرة المضية.

فقالت لها أمها: يا بنية! لعل الله أن يسقي جمرة كأس المنية، كما فعل بميمون والصبر عاقبته محمودة، والله يجزي الصابرين.

ثم إنها لم تزل تراضيها إلى أن سكن ما بها، فهذا ما كان من سلمى وأمها.

وأما ما كان من جمرة الحداد فإنه خرج من حي بني طيء مثل الثعلب، والثعبان الأرقط، وولده خلفه مثل شعلة نار إلى أن وصلا إلى حي بني كلاب، فأحنى جمرة ظهره وقوس ركبتيه ثم عوج فكه ومعط عينيه، وعصب رأسه، وأخمد أنفاسه، وأظهر أنه ابن ألف سنة، وجعل ولده يقوده إلى الأبيات حتى صار بين أطناب الخيام، ونظر إلى البيوت والأطناب، وكان ولده أنحس منه بطبقات...

فصار الشيخ يقول المنجم الحاسب الحكيم الكاتب، ينظر العايب ويخبر بكل شيء ذاهب، ويكتب للمتبوعه والمتبوع، ويقيم المصروع.

ولم يزل حتى وصل إلى أبيات جندبة، فنظر إلى تلك المضارب والقباب والحراس فقال له ولده: أرميتنا في أضيق الأقفاص! وما بقي لنا من الحي خلاص.

فقال له: أقصر يا جبان.

ثم قال: يا صاحب الجدي لك البشارة، فقام إليه رجل شيخ يقال له زرارة وقال : أنا صاحب الجدي، وله من حين ضاع ثلاثة أيام.

فقال جمرة: هات الحلاوة.

فقال : أخبرني من قبل أن أعطيك!

فقال: هات أولاً.

فقال الشيخ: أنت سارك الجدي، فلا أفكك إلا به!

ثم قبض عليه، فقال جمرة وقد قدح الفكرة: أن أقول عن الجدي الذي في السماء، فعندها دارت به الصبيان، وتضاحكت عليه العبيد والنسوان والشيخ يقول: يا لص! يا مهان هات الجدي وإلا أنزلت بك الهوان.

فساقوهم العبيد إلى جندبة وهم في قتال وغلبة ونظر جندبة إلى الغاغة فقال: ما الخبر؟

فأتوا إليه بالشيخ وولده وأعلموه بما هو فيه.

فقال له جندبة: ما أنت أيها الشيخ؟

فقال : يا مولاي! منجم أتكلم على النجوم، ولكن ما أدري بقضاء الحي القيوم؛ لأني كما ترى مكفوف البصر لا أفرق بين الأشكال والصور، ولا أميز بين البهائم وبين بني آدم الكرام إلا بالنطق والكلام، وأنا ما لي صنعة إلا أرقى البقر في مزاودها والخيل في مقاودها والإبل في مرعاها والغنم في مراحلها والمضارب والبيوت لا يدخلها سارق ولا ناهب!

فقال له جندبة: أرقي هذه المضارب وأنا أدفع لك ما أنت له طالب.

فقال له: ما أرقي إلا بشيء؛ لأنه لا رقوة إلا برشوة، فأعطاه جندبة دينارًا، فانطلق مثل البلبل والهزار وصار يرقي ويقول: بسم الإله الواحد، ذو العز والمحامد، مسخر الرياح، ومسفر الصباح، ومحي الأرواح، جل جلاله، فاقتدر إذا عصا عبده ستر سبحانه من خالق.. أعيذكم بالخالق من كل لص سارق وكل نحس مارق يريدكم منه بشر رقيتكم يا حاضرين، وأهل ذا الحي أجمعين القائمين والقاعدين من كل سوء وضرر.

فتعجب أهل الحي من رقوته وتباشروا برؤيته وقال له الأمير جندبة: ما قصرت يا حكيم الزمان في هذه الرقوة، ولكن أريد أن ترقي لي مزنة فرسي التي في قلب كل أحد منها محنة!

فقال : أنا أرقيها لك يا أمير، وأحرم أن يصل إليها صغير أو كبير، فأرني إياها حتى أضع يدي المباركة عليها، وأحرم النجم أن يصل إليها.

فأخذه جندبة إليها، ولم يزل يناشده الأشعار إلى أن أقبل الليل بالاعتكار، فقال له: امش معي يا حكيم الزمان إلى الفرس والحصان حتى نحجب عنهم الإنس والجان.

فسار جمرة وولده شرارة وجندبة معهم والعبيد بين أيديهم حتى وصلوا إلى الفرس والحصان.

فلما أن وصل إليها جمرة ووضع يده على مزنة فمن دهشته رمق إليها بالنظر فلمحه جندبة، فاقشعر جلده، وتحير، وقال له: أيها المنجم القهار إني أراك تنظر في الليل وتعمى في النهار، فعلم جمرة أن جندبة فهم عنه لما فتح

عينه فقال: والله يا أمير إني لا أنظر لا في ليل ولا في نهار ولا بقي جلد ولا اصطبار.

وكان في الحلة رجل طبيب عالم بجميع الأمور وفي الطب لبيب، فطلب جندبة إليه.

فلما حضر بين يديه قال له جندبة: انظر إلى هذا الحكيم هل هو أعمى أو بصير؟ فإن كان أعمى غمرته بالخير والنعماء، وإن كان بصيرًا عذبته العذاب النكير.

فتقدم الطبيب إلى الشيخ جمرة وهو في فكرة وحيرة وقال له عندما قرب منه: بالله يا أخي لا تفضحني ولا تتسبب في شنقي، وتكون سببًا لقطع رزقي، فقد وعدني الأمير بناقة وجمل وفرس وثياب ودنانير وشيئًا من الحنطة والشعير، وأنا أقسمه بيني وبينك نصفين، وتربح الثوب من الذي مرج البحرين.

قال: فضحك الطبيب وقال: هذا أعمى لا يبصر أرضًا ولا سماء!!

فرجع جندبة على نفسه بالملامة، وأظهر لجمرة الكرامة وقال: كل ما تريده يأتيك الغلمان به.

فقال له: أريد النار والحصى اللبان لأطلقه حول الفرس والحصان!

فجاؤوا له بكل ما طلب، فأطلق حول الفرس والحصان البخور، وجعل يقول: أعيذ هذه الفرس بالواحد المنان من الطعن والطعان عند التقاء الفرسان.

فأخلع عليه جندبة خلعة سنية، وعلى ولده كذلك وقال له: ما اسمك؟

قال: جمرة.

فقال جندبة: وما اسم ولدك؟

فقال: شرارة.

قال: فتشوش جندبة ونفر من هذه الأسماء وقال: والله إنها أسامي شنيعة.

ثم أمر الغلمان أن يفرشوا لهم الطرح والوسائد، وقال لهم: اخدموه بالطعام والموائد.

فقال جمرة: أريد أيها الأمير أن أطلق لها البخور إذا طلع نجم المشتري وأزهر عطارد، ويكون كل أحد راقد، فأمر العبيد أن يفكوا منه القيود والرباط حتى نمشيها على دخان البخور ليتم لك الفرح والسرور.

قال: فأجابه جندبة إلى مقاله، وقد أيقن ببلوغ آماله.

ثم إنه أخذ القيود، وأوصى العبيد ودخل إلى أبياته، وقد أمن من آفاته، وأقبل جمرة يشاغل العبيد إلى أن وجد فرصة من الإناء الذي يشرب منه العبيد الماء فوضع فيه مرقد كان معه، فما شرب أحد منه إلا رقد، فعند ذلك طلب هو وولده العبيد بالخناجر، وعجلوا بهم إلى المقابر، وطلع كل واحد إلى فرس وسارا يقطعان البراري والقفار إلى أن طلع عليهما النهار، والتفت جمرة إلى ورائه فما رأى أحدًا ولا وجد أثرًا ففرح.

وجد في السير هو وولده ذلك النهار إلى أن أقبل الليل بالاعتكار، هم أن ينزل وإذا بحس الخيل قد أقبلت من بعيد وقعقعة الحديد، فأراد أن يهرب، وإذا بالقوم قد أحاطوا به من كل مكان، ولدغوهم بالرماح وأقلبوهم، وفي أقل من لمح البصر أرموهما إلى الأرض وكتفوهما.

قال: وكان السبب في ذلك أمر عجيب لأن جمرة لم يراهم من بني كلاب غرمائه، وقد تعجب مما دهاه وذلك أن هؤلاء القوم من قبيلة يقال لهم «بنو أسد» والحاكم عليهم أمير من العرب يقال له «الليث بن فوز» وكان له فرس وحصان لم يكن لأحد مثلهما في ذلك الزمان، وكانت الفرس يقال لها البرق لم يوجد مثلها في الغرب ولا في الشرق وكان يفتخر بها على كل غني وصعلوك وحسده عليها سائر الملوك وكانت العرب تقول: والله ما لهذه الفرس مثال إلا مزنة فرس بني كلاب فيقول صاحبها: والله ما لفرسي مثال ولا ولدت مثلها عربية من الخيل الغوال، وكان بحبها تعبان وطول ليله سهران.

وكانت قد قصدتها العيارين وطلبت أبياته المحتالين، وبذلت فيها الأموال للسلالين، وكان أحرص عليها من جندبة وقد نصب الأخشاب والصواري وكل من أنكر عليه صلبه وأنزل به مصابه وعطبه، ولا يخاف لومة لائم، وقد شاع منه في سائر الجهات والمعالم، فتوقفت عنها الطلاب، ولم يبلغ أحدًا من أخذها أرب.

وكان بالقرب منه قبيلة يقال لها «بني مخزوم» ولهم أمير يقال له «رفاع بن حسان» فبلغه خبر الفرس والحصان فأحبهما على السماع وحلا له المسموع بعد الامتناع، وبذل الأموال والتحف للسلالين وغيرهم من العيارين.

ولما ان اعياه الأمر قال إن من أتاني بهما زوجته ابنتي الحسنا ذات الحسن والجمال، وكانت قد خطبوها منه أمراء العرب وأهل المفاخر وذوي الرتب، ولم ينعم بها أحد في ذلك الزمان، فبذلها لمن يأتيه بالفرس والحصان، وحلف على ذلك بالأيمان.

فلما سمعت العيارين ذلك الضمان أتوا إليه من كل مكان، وبذلوا نفوسهم للمعاطب طمعًا في نيل المآرب، وكان من جملتهم رجل يقال له «شواش بن عامر» وكان خبيثًا ماكرًا فقال: يا مولاي! أنا آتيك بالفرس والحصان، وتوفّي لي بالضمان؟

فقال : أي وحق خالق الإنسان والزمان، ولم ينته إلى حد معرفته إنسان، وأغنيك إلى ولد الولد وأزوجك ابنتي الحسنا دون كل أحد إن وفيت بالضمان.

ثم إنه دفع له شيئًا من المال وقال له : اقض حاجتي وأنفق ولا تخف من الإقلال.

فطلع من عنده كأنه العقاب وأخذ معه سلال آخر وكان مثل الشهاب، وقد دفع له شطر المال وتقمش بالقماش الفاخر، ودخل على الليث في صفة شاعر.

فلما كان عند الصباح واجتمعت أمراء العرب المخدومة عند الليث على جاري عادتهم قام العيار «شواش بن عامر» على قدميه وأنشد بعض الأبيات.

فقال الليث : أحسنت أيها الشاعر الفصيح اللسان، أنت أوحد هذا الزمان.

ثم خلع عليه خلعة سنية وأمر له بالإكرام وقعد يسامره إلى نصف الليل، فقام الليث إلى فراشه لينام، ومشى شواش إلى عند العبيد وجعل ينشد لهم الأشعار ويورد الأخبار ويحدثهم بأنواع الهذيان إلى أن نامت العيون وهجعت الكلاب، ونام كل من في الحي من الشيوخ والشباب.

فقام شواش هو ورفيقه وهو كأنه النمر الحردان وأتيا إلى عند الفرس والحصان وحلوهما من القيود وخرجوا بهما من الحي وركب كل واحد منهما جوادًا وسارا من تلك الأماكن والبلاد واتساع في البر والوهاد، وكان في طريقهما واد يقال له «وادي السباع» فأرادوا أن يكمنوا فيه خوفًا من الطلب، وإذا قد خرج عليهم أسد أدرع فقتل الفارسين وكسر الجوادين فهذا ما كان من السلالين.



أكل الأسد ولده!!

وأما مـا كان من الليث فإنه خرج من مضربه عند الصباح يتفقد الخيل فلم يراها ووجد العبيد مذبوحين فعلم أنه ما دهي إلا من الشاعر المهين، فصاح في الخيل فركبوا وطلعوا مثل السيل وساروا ذلك النهار أجمع إلى الليل، فوقعوا بجمرة وولده كما ذكرنا، فنزلوا عليهما بالصفاح إلى أن أثخنوهما بالجراح، ثم أخذوهم وأتوبا بهما إلى الحي وقدموهم إلى مقدمهم الليث.

فنظر الليث إلى الغرما فلم يجدهم غرماه والفرس والحصان ما هم خيله، فتعجب من ذلك ولكن أعجبته الفرس وصارت فرسه عنده لا تساوي نعل مزنة.

عند ذلك أقبل على جمرة وقال له: من أي العرب أنت؟ وإلى أين أنت سائر؟

فقال له جمرة: يا مولاي! أنا رجل شاعر أمدح أصحاب العلا والمفاخر، وهذا ولدي ومن عليه معتمدي، وقد قدمنا على الأمير جندبة أمير بني كلاب ومدحناه بشيء من الأشعار فأعطانا الخلع والمال، وهذه الخيل القليلة المثال،

فوقعتم أنتم بنا وفعلتم هذه الفعال ولا بد أن تشيع عنكم هذه الأخبار والأعمال الرديئة بين قبائل العربان، وفي محافل الرجال.

فقال رجل من مشايخ العرب: كذبت يا قبيح المنظر، هذه خيل ما تعطى لشاعر، وهي رخيصة بالنفوس والخواطر والله ما أنت إلا سلال وماكر ومحتال، ثم قال: أيها الأمير قد أخلف الله عليك عوضًا عن خيلك بهذه الفرس والحصان فلا تبتلي نفسك بالحرمان، فعندها قبضوا على جمرة وولده شرارة وسلموهم للعبيد وأقاموا عليهم التوكيل الشديد.

فأقام جمرة إلى نصف الليل وأراد أن ينام فمنع المنام مما هو فيه من القيود والأغلال.

فبينما هو في حيرة وخيال وإذا به قد سمع عبدًا يتأوه ويتحسر في جنح الظلام، إلا أن جمرة لما سمع تأوه العبد علم أنه عاشق ومستهام، فأقبل عليه وقد علم أنه يحب بعض الإمام وقال له: إني أراك تشكي الصد والهوى إلى ما تريد.

فقال العبد: اكتب لي كتابًا وأنا أخلصك من تلك الأوصاب ولكن أخاف عليك أن تخرج الرجال خلفك والخيل إلا أن يكتب الله لك السلامة منهم، ومن هذا الوادي المسبع، فأنت تصل إلى بني طيء؛ لأن ما عليك خطر إلا مما ذكرت لك.

فقال له: هات الدواة والورقة وخلص لي الفرس والحصان، ودع الأرض تنفر عليَّ رجالاً وفرسان وأسود غيلان.

فقال: سمعًا وطاعة، ثم إنه أتاه بما طلب، فكتب له جمرة كتاب الهذيان ورق له بفشان اللسان.

وكان العبد قد خلص له الفرس والحصان، فدفع له ذلك وركب الفرس وولده الحصان وطلب البر والكثبان، ولم يزالوا على ذلك الشان حتى وصلا إلى الوادي المسبع، فلحق ولده شرارة البول فقال لأبيه: يا أبتاه أمسك لي الحصان حتى أنزل للبول.

فقال جمرة: ضيق الله عليك الأرض، ما تبول إلا هنا!

فقال: والله ما بقيت أمشي من ذلك المكان، ثم نزل من على ظهر الحصان إلا أنه ما وصل إلى الأرض إلا وسبع قد خطفه بين الشجر وكبس عليه فانذء ومات لوقته، وأكله السبع.

فلما رآه أبوه تأوه عليه وتحسر وأطلق عنان الفرس والحصان في يده وسا إلى أن أصبح الله بالصباح فأشرف على حي بني طيء.

ودخل إلى حي بني طيء بمزنة والغمام فهذا ما جرى لجمرة من الأمور والأحوال.

وأما ما كان من الليث بن فوز فإنه عند الصباح فقد الفرس هي والحصان، فصاح في بني عمه فأقبلت عليه وقد أقبلت الدنيا وسألوه عن حاله فأخبرهم بهروب الغريم وأمرهم بالمسير خلفهم.

فعند ذلك اقتفوا آثار الخيل وإذا هي طالبة وادي السباع فساروا قليلاً، وإذا بجثة شرارة مرمية ورأسه مثل الأكرة فعرفوه لكن ما وجده لأبيه خبر، فساروا

إلى داخل الوادي وإذا هم بالفرس والحصان مقتولين و كذلك السلالين إلى جانب الخيل مطروحين، فبكا الأمير الليث لأجل محبتهم وقال: الحمد لله الذي أكلهم السبع، ولم يحظ بهم أحد غيري، ثم إنهم رجعوا إلى الديرا وما في قلبه غير الوجد والإفتكار.

فهذا ما كان من أمر الليث بن فوز.

وأما ما كان من جمرة فإنه دخل المضارب وقد وقع الصياح من كل جانب، وتلقته الإماء بالدفوف والمزاهر، ودخلوا به إلى الفطريف بن مالك، فخرج إلى لقائه ونظر إلى الفرس فكاد أن يطير من الفرح والاستبشار، جمرة لا يطيق يتحرك من ألم الجراح.

فقام الفطريف إلى مزنة وجعل يقبلها وجعل في عنقها قلائل الجوهر وعلى ظهرها جل من الحرير الإبريسم الأحمر، وركبها ودخل بها إلى الحي، وأعاد بالأطباء وأمرهم أن يداووا جمرة إلى أن يعود إلى الصحة ويبرأ ويدخل على سلمى من غير رأي.

فواضبوه أيامًا وهو لا يزداد إلا بلاء وأسقامًا، ولما أن خاف أن يشرب كأس الحمام قبل بلوغ الآمال فأقبل الفطريف وقال له: أيها الأمير أين الذي وعدتني به من وعدك الظريف، فعندها أحضر الفرس والحصان وقال له: اركب ما شئت أيها الدهقان، ثم صاح لسلمى.

فخرجت إليه وهي كأنها غزال عطشان فقال لها: ادخلي إلى زوجك!!

فقالت له: يا أبتاه، وكيف تفعل ذلك ؟ بالأمس أعطيتني لعبد قليل المقدار،

واليوم لشيخ أعور مثل عفاريت القفار!!

فقال : دعي عنك هذا المقال، فإن كان وجهه قبيحًا ففعله مليح، ما جمال الرجال إلا الصبر وركوب الأهوال، والمرأة لا ترى زوجها إلا في عينها مليحًا، ثم صاح يا لخنا إن عدت تردي عليّ أمرًا أو كلامًا لأعلون رأسك بهذا الحسام، ثم قال: خذها إليك يا جمرة فقد قمح الشرع أنف الغيرة.

قال: فدخلت إليه وهي باكية العين تدعو على أبيها .

ولما صارت من عنده أراد أن ينهض إليها فلم يقدر أن يتحرك من ألم الجراح هذا وسلمى تدعو في سرها وتتضرع إلى الله أن ينقذها من جمرة، ولا يترك في قلبها حسرة.

وأما جمرة فإنه لما أراد القيام إليها سقط مغشيًا عليه وأيقن بالممات، فأشار يرثى روحه قبل موته وهو يقول: أنا ما أخاف الموت، بل أخاف الفوت ثم إنه بكى، ثم شهق شهقة فارقت روحه الجسد ومات.

فعندها حمدت سلمى ربها تبارك وتعالى وخرجت من الخبأ فقال لها أبوها :مالك يا سلمى!

فقالت له: مات بعلي! فضحك من قولها وقال لها: أنت غير مباركة على الأزواج.

فقالت له: يا أبتاه أنت قد خيبت مقصدي فما ضيع الله حسبي ولا نسبي.



الأمير جندبة ونهاية عشقه لمزنة!!

فهذا ما جرى لهؤلاء .. وأما ما جرى من أمر الأمير جندبة فإنه لما أصبح الله بالصباح افتقد مزنة والغمام، فلم يجدهم في الخيام فصاح: يا لكلاب .. يا لكلاب الخيل يا أرباب الخيل، فعندها ركبت العرب على صهوات الجياد، وساروا النهار والليل وهم ينادون: أيها السيد! لو أن مزنة في يد عاد الأكبر أخذناها أو في الجبال الصم نزعناها.

ثم إن القوم ركبوا الخيل وساروا في الوادي وتفرقوا في كل مكان وجندبة قد أرسل النجابة في طلب مزنة، فغابوا وكان القوم منتظرين حضور النجابة حتى يعودوا بالجواب، فعاد النجابة بعد أيام قلائل بأصدق البراهين والدلائل وأخبروا أن الفرس والحصان عند الغطريف في غاية الإنعام والإكرام، فعندها رحل جندبة بمن جمعه من القبائل ولم يترك طفلاً صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا وسار إلى بني طيء وهو في نار لا يطفأ لها شرار.

وكان لبني طيء في بني كلاب عيون وجواسيس تأتيهم بالأخبار حينًا بعد حين، فلما نظروا ما تم من جندبة ومسيرة فسبقوا إلى الملك الغطريف وأخبروه بما كان من جندبة وبني كلاب، وأنهم سائرون إليكم وقادمون عليكم.

فنادى الغطريف في بني طيء وأمرهم بالمسير وهو يقول: أن أرذل الرجال من تدوس الأعداء دياره وتقاتله في أمصاره، فتحررت الرجال وسارت نحو بني كلاب وهم كأنهم أسود الغاب.

وكان الملتقى على واد يسمى «وادي الجندب»، فلما وقعت العين على العين تصايحت أبطال الطائفتين واصطدمت العسكرين وحان الحين، وزعق على رؤوسهم غراب البين، وعملت الصوارم في الفريقين، وتصادم الفتيان، ونفذت في الصدور العيدان، واستوفى الضرب والطعان، وانقضت عليهم عقبان القضاء والقدر وسحبت سحائب النجيع كالمطر، وصارت الأعمار الطوال في قصر.

وقاتل جندبة ومن معه، وصبر وتغير الألوان، وفسدت الصور، وظهر الغطريف على ظهر مزنة، وعليه درع أصفر لا تنفذ فيه الإبر، وفي يده صارم أبتر وهو معتقل برمح أسمر، فصاح على جندبة وهدر وصاح وزمجر.

فلما رآه جندبة على فرسه لم يجد مصطبرًا دون أن يقفز إليه واشتهر وناداه: يا ويلك! يا من فجر وغدر، أنت ما أخذت مزنة بقتال ولا نزال، بل بحيلة محتال فدونك الآن والحرب ومقام الطعن والضرب.

ثم إنه ساواه في مجاله، وطلب حربه وقتاله.

فلما سمع الغطريف كلامه وما أبداه من نثره ونظامه تقدم إليه وناداه: يا لكاع! أنت تعايرني بالخداع وهو من أبواب الحرب والقراع.

ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه واحترز من طعنه ومضاربه، وفتحا في

الأرض ميدانًا وأجادا ضربًا وطعانًا وتسابقا في حومة الميدان والمجال، وأخذا في الحرب والقتال، وتعجبت في قتالهما الفرسان والأبطال.

ولم يزالا في طابق الجولان مقدار ساعة من الزمان، وبعد ذلك اختلفت بينهما طعنتان كان السابق بالطعنة الأمير جندبة من فرط محبته لمزنة، وكان الغطريف فارسًا قد لقي كل مصيبة ومحنة.

فلما رأى السنان وصل إليه مال عنه بمعرفته إلى أن جازه السنان وكسر حدته، ثم طعنه مجاوبًا لطعنته فوقعت في فخذته شكته إلى جانب الحصان، وأحس الجواد بالطعنة، فوقع جندبة على الأرض، فأوهنه.

ولما رأت بني كلاب أن سيدها ملقى على التراب والملك الغطريف رجع إليهم كأنه العقاب وهو يطعن الطعنات كأنها نار الالتهاب ولوا الأدبار، وركنوا إلى الفرار، وتبعوهم بني طيء كي يضربوا منهم الرقاب وينزلوا بهم الدمار، فصاح فيهم الملك الغطريف ونادى: يا بني عمي! القوم ما بيننا وبينهم دمًا فلا تنهبوا لهم مالاً ولا تقتلوا لهم أبطالاً ولا رجالاً..

فرجع بنو طيء إلى ديارهم عند سماع الملك الغطريف وقد علاهم الفرح والاستبشار، وبتلك الفعلة انقطع عن بني كلاب الطمع والطلب، فقال بعضهم لبعض: يا بني الأعمام! إن القوم قد جاءهم شغل وإلا ما كانوا انقطعوا عنكم، ونحن كيف نرجع إلى الديار ونترك جندبة مرمي في تلك الوهاد والقفار!.

فرجع القوم إلى الميدان، فوجدوا القتلى الأكثر من بني كلاب، فتأسفوا على هذا المصاب فجعلوا يقولون: هذا فلان، وهذا فلان، وعلموا أن ذلك بإذن الملك

الوهاب، ورأوا الأمير جندبة بين القتلى مطروح، إلا أنه فيه الروح، فحملوه وعادوا إلى الديار ، وقد نزل بهم الذل والوبال.

فلما وصلوا إلى المضارب وقد حلت بهم المصائب ونزلوا قد ندبت النوادب على من قتل لهم من الحبايب، ثم إنهم قطبوا جراحات الأمير جندبة لكن بطلت رجله ولا بقي يمشي إلا على عصاه، وقد طمع قومه فيه، وقل في أعينهم وتضعضع حاله، ونفرت منه رجاله، وعلم أن أمره قد صار غير نافذ فدعا بأخيه الأمير «عطاف» وكان كريم الأوصاف، كامل الحصال، كثير المال والرجال، ثابت في المجال يوم الحرب والقتال فقال له: يا أخي! اعلم أن خير القول أصدقه والإمارة لها شروط ومن جملتها المال والرجال والنشاط، وأنا قد فقدت هذا كله، ولا بقي يلذ لي مركوب بعد مزنة، وقد رماني الزمان بعدها بالحرمان والمحنة، وإن الأهل والعشيرة لهم عليَّ حق لا أضيعه، وقد رأيت من الصواب أن تكون أنت الأمير علينا والمشار إليه فينا.

ثم دعا أهل القبيلة وأخبرهم بذلك فأجابوه الأبطال، واستصوبوا ذلك المقال، وخاطبوا عطافًا بالإمارة جميع الرجال فأعطى وأوهب وفرق الخيول والجمال والفضة والذهب، وفرحت به الرجال والنساء وجميع العبيد والمولدات والإماء.

ومن ذلك اليوم انفرد الأمير جندبة في بيت منفرد عن الناس ولبس الخشن من اللباس وتواترت عليه الأمراض والأعلال وتغيرت عليه الأحوال وجفاه كل صديق وانقطع عن زيارته كل رفيق، فجلس في بعض الأيام، وتفكر في أحواله [illegible]

إلا أن جندبة لما فرغ من فكره صلى ركعتين ونام، فرأى في منامه قائلاً يقول: يا جندبة أبشر! فإن الله تعالى يعوضك عن رجلك الجنة، ولا بد أن ترزق ولدًا يخلفك من بعدك ويملك البلاد وتطيعه العباد، فاشكر الله على هذا الحال فلا تضيق صدرك على إذهاب المال.

فانتبه وهو متعجب من ذلك المنام، ولم يزل ينتظر الأحوال مدة من الزمان، وبعد ذلك طرقه الحمام فأصاب بني كلاب عليه أعظم مصاب، وبكى عليه الرضيع منهم والفطيم والمشايخ والشباب.



عشق الصحصاح للأميرة ليلى

وبعد موته بأيام قلائل ظهرت زوجته حاملاً وما كان لها من يقوم بها بعد الملك والمال إلا الإذلال والسؤال، فقالت في نفسها: والله لا بد لي أن أقصد الأمير «عطاف» وأطلب بذلك الرأة من خفي الألطاف.

ثم إنها سارت إلى عطاف فوجدته جالسًا بين السادات الصناديد والموالي والعبيد فتركته ودخلت إلى زوجته، ولما قدمت عليها بكت بين يديها وقالت لها: أيتها السيدة لا جعل الله لك إلى ذي فقر حاجة ولا زلتم تحكمون بالعدل، وجنبتم اللجاجة، وقد رات عيناك و سمعت أذناك ما نحن فيه من الحلة والمال والعز إلى أن تقلبت الأيام والليالي، وقد أتيت إليكم قاصعدة بعد العز ذليلة وبعد الكثرة قليلة، وإذا ماتت الرجال ذلت النساء، وكفى أن قلب كل أحد علينا قد قسى.

فلما سمعت زوجة عطاف منها تلك الأوصاف مالت إليها بالانعطاف وقالت لها: أيتها الأميرة نحن لكم نعم الذخيرة، أما والله ما كنت فقيرة ونحن أغنياء، وذمة ا لعرب أنا ما تركت افتقادك إلا خوفًا من انكسار قلبك لئلا يخطر ببالك أننا جعلنا موضع الصدقة، وبعد فكل فضل وصل إلينا فمن بعض فضلكم، فأقيمي عندنا ولك مالنا وعليك ما علينا.

ثم خلعت عليها شيئًا من ثيابها وحكمتها في النعم، وأفردت لها مكانًا في وسط بيتها، وأقامت زوجة جندبة عند زوجة عطاف آكلة شاربة مدة ذلك الأسبوع، وما معها شيء ممنوع.

وكان قد وصل الأمير عطاف من مجلس الحكم فأعادت عليه زوجته قصة زوجة أخيه جندبة فدمعت عناه، وقال: أن أردت أن تنظر الدنيا بعدك فانظرها بعد غيرك، ثم قال لها: أكرمي مثواها.

وكانت زوجة عطاف حاملاً، وكذلك زوجة جندبة، فكانوا الاثنين كفرسي رهان، فلما كملت لهما الأيام واعتراهما الطلق كان ذلك في يوم واحد بقرة الإله الخالق الماجد، وكل واحد منهما في جانب، وعندهما القوابل.

ووضعت امرأة الأميرة جندبة ولدًا كأنه البدر، ووضعت زوجة عطاف بنتًا كأنها قمرًا طالعمًا فسموع «ليلى»، وسموا ابن جندبة «الصحصاح» لأن وجه كان كالمصباح.

ونشأ الاثنان مثل النجمتين وأتموا عدة أشهر، وتربوا في الدلال عدد السنين والعوام إلى أن بلغ الصحصاح من العمر خمسة عشر سنة، فكان الصحصاح أحسن الصبيان، وكانت ليلى أحسن البنات.

وخرجت ليلى في بعض الأيام مع أترابها للغدير تتفرج على الزهر المنير وحولها جميع جواريها والحسن قد حازها، وكان من الاتفاق أن الصحصاح خرج يتفرج على الربيع والأرض قد اكتسبت حلتها الخضراء، وقد فاحت روائح أزهارها وهي أزكى من عطر عطارها.

فجعل الصحصاح يتفرج على الغدير، وينظر إلى ليلى وهي كأنها القمر المنير، فهاج جنانه ونطق لسانه؛ لأنها رشقته بسهم من كنانة جفونها فجرحت قلبه بعيونها، فباح بما في فؤاده من الغرام، وهتك ستر الحياء والاحتشام وقال بلسان النظام أشعارًا في حب ليلى.

فسمعت ليلى شعر الصحصاح فخجلت ومن أترابها استحت، وعظم ذلك عليها فقالت: يا صحصاح! تفضحني في كلامك وشعرك ونظامك؟

فقال لها الصحصاح: يا مولاتي! مالك كنيت ولا باسمك عنيت.

فلما سمعت كلامه شق ذلك عليها، وعادت إلى منزلها وحدثت أمها فقالت لها: يا بنية لعله قصد إلى غيرك، وهل هو إلا يتيم أباك.

وشاع الحديث من أمة لها إلى بعض بنات عمها، فسمع الحديث أبوها عطاف، ففزع على عرض ابنته، فدعى إليه زوجته، وأطلعها على الحال وقال لها: يا ابنة العم! هذا الصحصاح قد بلغ مبالغ الرجال، وكذلك ابنتك ليلى قد بلغت مبالغ النساء، وقد ألفها وألفته من حين كانوا صغارًا، والتفريق بينهما هو عين الصواب، وإلا صرنا معيرة عند سائر الأعراب.

فلما سمعت زوجته ذلك استصوبته وأنفذت في الوقت خلف الصحصاح.

فلما حضر بين يديها سلم عليها، فردت السلام وقالت له: يا ولدي! اعلم أنك قد بلغت مبالغ الرجال، وما يخفى عليك الحال، ونحن نريد منك أنك لا ترجع تلم بنا ما هو كرهًا فيك، ولكن خوفًا من كلام الناس في حقنا، ويشهد الله على ذلك.

عندها أطرق إلى الأرض كأنه قد الجم بلجام، وخرج من عندها ودموعها تتحدر من على وجناته، ويتشرق بكأس عبراته، وقد أضرمت نيران زفراته.

فلم يزل كذلك إلى أن دخل على أمه وشكا إليها جميع ما جرى.

فلما سمعت أمه كلامه زاد كربها وحزنها، كيف ذكر ليلى في شعره وجردت عليها ونهرته.

فعند ذلك رفع رأسه إليها وقال: يا أماه! أنا أولى بها وهل هي إلا ابنة عمي، ولا عيب في أصلي، وإن كان الفقر قد ازدراني، فإن الذي قد سلب منا الغنى فيما سلف قادر أن يجود علينا بالخلف.

فقالت: اسكت يا ولدي! ثكلتك أمك، والله إن وصل كلامك إلى الأمير عطاف ليكون ذلك سببًا لقطع مهجتك وبعدك عن وطنك، ويلك يا ولدي أنت وأنا الليلة نبات بلا عشاء إن لم يبعث لنا بيت عمك شيئًا نأكله، فمن يكون هذا حاله فعنده شغل شاغل عن غيره، فكيف حال من يسعى إلى الصعود إلى السماء ليتناول الكواكب، ولا يكون ذلك أبدًا، ولا يناله طالب من أهل المشارق ولا من أهل المغارب.

فلما سمع الصحصاح من أمه هذا الكلام زادت حسرته، وجرت دمعته، ولم يدر ما حيلته، وزاد به الغرام واشتد به الهيام، ونطق بالشعر لسانه لما كثرت أحزانه.

فقال الصحصاح لأمه: يا أماه! هل بقي عندك من مضارب أبي حتى نعتزل به عن هذه المضارب؟

فقالت: بلى! إنه ملف تقادم السنين بيتًا وهو ديعته عن الأمير مازن بن فهر الكلابي.

فقال لها: ائتيني به حتى أضربه في آخر البيوت مع الفقراء والمساكين، وصارت أمه تتردد إلى بيت عمه وتأخذ من زوجة عمه عطاف ما تحتاج إليه من الطعام والشراب.

وأما الصحصاح فإنه من السهاد هجر المنام، ثم زاد به الغرام فخرج وهم أن يطلب بيت عمه ليطفئ نيران ليلى في قلبه، فعاد على نفسه بالعتاد، وقال: ما هذا صواب.

فرجع إلى بيت أمه وهو شاك ومما يقاسي من الغرام باك، فلم ير أمه ف الخباء وكانت قد مضت إلى بيت عمه عطاف.

وفي ذلك اليوم خلت أمه بليلى، وقالت لها: يا أماه، كيف حال ابن العم؟

فقالت: يا ابنتي في أسوأ حال، وأعظم بال، ساكب العبرات طوال ليله، ثم أعادت على ليلى جميع ما جرى لها من ولدها الصحصاح، فبكت ليلى وقالت: والله يا أماه ما هجروه أهلي بغضًا فيه، ولكن من كلام الناس والأعداء، وأن يصير حديثنا بين الملأ، وإنني عندي له من الألف وشدة المحبة، وعهد الصبا أضعاف ما عنده، ولولا عثرات لسانه لما كان منه من عواطف أبي عطاف وإحسانه، فقولي له يخفي ما عنده، والصبر أجمل، فلعل من قضى بالفراق علينا يمن علينا بالتلاق، ثم أعطتها شيئًا من النفقة وقالت لها: يا عمتها طيبي قلبه.



ففرحت أم الصحصاح بذلك ودعت لها وعرفت صفاء ودها لولدها.

وخرجت أم الصحصاح طالبة لولدها فوصلت وهو قد دخل الخباء فأعادت عليه ما جرى لها من ليلى، فزاد الصحصاح طمعًا وغرامًا، ولم يعرف بعد ذلك منامًا، وقال: يا أماه ! أنا من اليوم قتيل هواها، وأسير عيناها، ولا أسمع فيها لومة لائم، وإن نامت فأنا غير نائم.

* * *

الصحصاح والرجل المليء بالجراح

ومضت الأيام والليالي وهو على جمر المقالي حتى بلغ من العمر ثمانية عشر سنة، وكملت فيه الخصال الحسنة، فخلى في بعض الأيام بنفسه، وقال: ما لي أرى جسدي يذوب ذوب الرصاص، فلمَ لا أسرع إلى الخلاص من ضيق الأنفاس، قال: متى أكون في موضع لا أقدر فيه على ليلى، ولا أنظر إليها، وأنا فما فيَّ عيب إلا فقري، وما لي لا أخرج عن أرض بني كلاب وأتغرب، فإن مقامي عندهم عذاب، فإن غيابي وحضوري سواء، ثم قال: سبحان الله أنا ما لي فرس أركبه ولا مال أوهبه، ولا قميص فاخر أصحبه، فوالله لا شرد روحي أن أوطانها، فإما أن تفوز بآمالها، وإما تخلص من هوانها، وإما أن تهلك دون مرادها.

وخرج الصحصاح وقد غلب عليه الهوى وتملك بمهجته الجوى، وطلبته أمه عند العشاء فلم تجده، فظنت أنه مضى إلى بيت عمه كما كان على جاري عادته.

فلما فقدته تجدد عليها أحزانها، وضاقت عليها الأرض وأخذت في البكاء والنحيب.

ثم جعلت تبكي وتنوح، فعلم أهل الحي، فأتوا إليها وبكوا لبكائها، وحزنت قلوبهم على الصحصاح ويتمه وغربته وبعده عن أحبته.

وأما ما كان من أمر الصحصاح فإنه لما خرج من عند أمه لم يدر إلى أي مكان يسلك، فجعل يسير الليل والنهار مدة ثلاثة أيام وقد فني زاده، وخفق فؤاده، وطار رقاده.

وفي اليوم الرابع أشرف على أرض متسعة الفلوات، مليحة الجنبات، وفيها غدير ماء يتلاطم بالأمواج، والغزلان في ذلك المرج تمرح والطيور على الأغصان تشرح، والأزهار منعكفة والوحوش تسرح والبلابل تصدح.

ثم إنه انبطح على وجهه كعادة العرب، وجعل ينكش الأرض بأصبعه وهو مفكر، وإذا بوقع حوافر فرس على بعد، فالتفت وإذا هو بفارس يكد وهو طالبه، وهو على جواد كالجبل، وقد اعتنق عنق جواده.

فاستوى الصحصاح جالسًا ولم تكن إلا لحظة حتى وصل إليه الفارس وهو على آخر نفس، فسلم بصوت خفي، فرد عليه السلام، فنظر إليه الصحصاح كأنه قطعة أرجوان وفي جسده جراحات كأفواه القرب.

فقال للصحصاح: يا وجه العرب! اطرحني على الأرض طرحًا خفيفًا واتخذني ما عشته خلاً ورفيقًا، وشد لي جراحاتي لعل الله يبدو صلاحي، واسقني شربة من الماء فأنا أعلم أن شرب الماء ما يصلح للمجروح لأنه مسرع لخروج الروح، واعلم يا وجه العرب أني إن سلمت جازيتك، وإن مت فأنت بذلك مسعود.

ففعل الصحصاح ما أمر به، وكان تحته حصان يحير فيه الوصف، ويسبق الطرف، وقد قطع به المسالك كأنه الليل الحالك، وإذا سار يسبق الطير الطائر، وله قوام كأنها أعمدة حديد وبياض غرته كأنه البدر المنير.

فلما نظر الصحصاح إلى ذلك الحصان حار فيه وقال: ما أظن يوجد مثل هذا الحصان في سائر البلدان. ثم أقبل على ذلك الإنسان وقد وجد في نفسه راحة فقال له: حدثني من فعل بك هذه الفعال؟

فقال له الرجل: يا ولدي! اعلم أنني رجل سلال مكار محتال طول دهري أسل الخيل وأخوض في ظلام الليل، ولو كان الحصان بين الأجفان أو انطوت عليه مطاوي الأكفان أو ضمت عليه أحشاء الإنسان لسليته أسرع من البرق اليمان، ولا أفزع من كيد الشيطان، وأنا آفة العربان، ومحنة كل فرس وحصان، وأنا يقال لي «المقتنص بن وثاب» وكنت سمعت بهذا الحصان الذي تراه تحتي، واسمه «الشاهق» ويلقب باللاحق، وهو من خيل بني مرة، وصاحبه يقال له «مسعود بن وبرة»، وهو يدل بهذا الحصان على جميع العربان، وهو عنده عزيز مصان.

فخرجت من قبيلتي وهم بني نمير أهل الجود والخير طمعًا في هذ الحصان، وقلت: هذا ثمنه أربعمائة ناقة سود الحدق، حمراء الوبر، وخمس عبيد، وخمس إماء ما لهن نظير، فسرت إلى القوم فأقمت عندهم يومًا بعد يوم إلى أن وجدت خلوة إلى سلة فقدته بفاضل زمانه وأخرجت من مخلاتي سوط وضربته به، فطار بي كأنه شاهين أو عقاب.

فلما أحسوا بي ركبوا الخيل من كل جانب، وتبادروا مثلا السلاهب، وفي أيديهم السيوف القواضب، وسبقني بعضهم إلى الوادي لعلمهم أن ما لي عبور إلا من عليه، وثاروا من بين يدي خمسين رجلاً ورموني بالحراب، وأثخنوني بالجراح، وأنا على ظهره وهو يوثب بي وثبات الفهد إلى أن خرجت من بينهم، وهو كأنه النجم الطارق أو السهم الخارق، فلم يلحقوا مني إلا الغبار وأخذني وطار ولي ثلاثة أيام والدم يسيل من بدني، وقد ذهبت مني القوى وهانت عليَّ الدنيا، ولكل أجل كتاب، وقد أحسنت لي وأشفقت عليَّ، وأراك بهذا الحال عاري الجسد، ظاهر الكمد، وعليك شواهد أهل النعم، فمن تكون يا وجه العرب؟

فقال له الصحصاح: أنا من بني عامر وأبي جندبة بن الحارث الكلابي سيد بني كلاب وأبي مات وأمي حامل بي، وجازت علينا نوائب الزمان، وقصدتنا الحوادث من كل مكان، وأعاد عليه جميع ما هو فيه وكيف خرج من عنده أمه هائمًا على وجهه وهو في أمره حائر.

فرق له السلال وقال له: يا ولدي إنك لذو حسب ونسب، وأبوك سيد من سادات العرب، ومع هذا يا ولدي إن قدرت تحملني على ظهر جوادي وتوصلني إلى قومي وتكون راكبًا ورائي تحفظني فما بقي لي قوة ألزم روحي على ظهره، فإن أنا سلمت فهو بيننا بالسوية، وإن أتتني في الطريق المنية فخذ أنت الجواد، وامض فوالله لقد صح عندي أنك أحق به مني.

فقال له الصحصاح: قد رضيت بذلك وتعاهدوا على ذلك ثم، أقاموا على الغدير إلى وقت المساء.

فنهض الصحصاح وتوضأ وصلى العشاء والتفت إلى السلال فوجده يمالج سكرات الموت فتقدم إليه ورفع رأسه على ركبته، وقال له: مالي أراك على هذا الحال، فلم ينطق بأكثر من قول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وقضى نحبه ولحق بربه.

فلم يبرح الصحصاح حتى طلع الفجر، فصلى الصبح ونهض إليه وغسله على جانب الغدير ولم يزل حتى واراه التراب بعد جهد جهيد وركب جواده وأخذ عدة جلاده، وهم بالمسير فحانت منه التفاتة فنظر إلى مخلاة معلقة في السير الذي في السرج فتطلع فيها وإذا فيها آلة السل مثل مفاتيح ومبارد وأقفال وخيوط طوال، ومما يشاكل ذلك فألقاه من يده في الغدير.

ثم إنه سار حتى وصل حي بني كلاب وهو فرح، فتلقوه أهل الحي وفرحو بسلامته غاية الفرح، وفرح هو بهم أيضًا وانشرح.

ونظر عطاف إلى الجواد فكاد أن يطير من الفرح، ثم سأله عن قصته وما جرى له فأخبره بحديثه من أوله إلى آخره، فتعجب عطاف من قوة سعادته وعلو همته، وقال له: والله يا ولدي لقد ضاقت عليَّ الأرض لغيبتك فالحمد لله على سلامتك فخذمه الصحصاح وقاد إليه الجواد.

فقال له عطاف: وحق من مرج البحرين، لقد سمعت بهذا الجواد وخبره، ولو كان صاحبه يبيعه لشريته منه بألف ناقة، والآن فقد جاءني من غير تعب وما ضاعت والله تربيتنا في ابن جندبة.

ثم قال: ما أتركك ترحل بما صرت راكبًا، ثم أمر بجواد بلون الغراب ينقض

كأنه شاب وأعطاه سيفًا قاطعًا، ودرعًا مليحًا مانعًا ومائة راس من الغنم وعشرة من الإبل فقبل الصحصاح عند ذلك الأرض ودعا له وعاد إلى أمه، وقد فرح بفعل عمه، وفرحت عند ذلك أمه بعودته فقامت وقبلته بين عينيه...

وسمعت ليلى بقدوم الصحصاح ففرحت غاية الفرح، وزال عن قلبها الهم والغم.

وأما الصحصاح فإنه لم جن عليه الليل وأرادت العيون أن تنام زعزعته زعازع الهوى وألهبته نيران الجوى، وطلب الصبر فلم يجد إليه سبيلاً، وضاقت عليه الدنيا، وأحس أن روحة زاهقة من بين جنبيه فدعى بأمة تسمى «سعدى» كان يعرفها أن تدخل على ليلى فتقص قصته إليها، وتصل لها ما يلاقي.

فقال لها: أريد منك يا أختاه أن تذهبي إليها وتعرفهيا بحالي.

فمضت الأمة وقد عرفت شدة حاله وشاهدت عظيم بلباله، ودخلت على ليلى ووصفت لها ما يقاسي الصحصاح من ألم الهوى.

فلما سمعت ليلى بذلك زادت بها الأحزان وأظهرت ما كانت تخفيه من الأشجان، فصبرت حتى نام كل يقظان، واشتملت بمرط أسوط وخرجت ولم يعلم بها أحد حتى أتت خيمة الصحصاح وقد هانت عليها روحها لما تعرف من حسن وده ومحبته.

فدخلت عليه وهو مما يلاقي من الهيمان بين النائم واليقظان، فانحنت إليه وقبلته بين عينيه ففتح عينيه ونظرها فكاد كبده ينفطر من شدة الفرح، وغشي عليه ساعة، ثم أفاق وقد كادت روحه أن تبلغ التراق.

وجعل الصحصاح وليلى يتشاكون من عظم المحبة ويبكون من كثرة الشوق والاحتراق إلى أن بدا الصباح وخافت ليلى من الافتضاح واستأذنت الصحصاح في الذهاب، فخرجت وهي مخفية إلى أن وصلت إلى خيامها ولم يجر بينهما فاحشة ولا خيانة.

ولما خرجت ليلى من عند الصحصاح أصابه الهم والغم.

وكان عطاف قد علم بزيارة ابنته ليلى للصحصاح، فهم بقتلها لكن أمها منعته وقالت له إن الشجعان قاصرين الأعمار.

قال عطاف: فعلم أن قولها صحيح، فرجع عما كان قد عزم عليه والموت يلوح بين عينيه.

ثم أقبل الصحصاح على أمه وقال : يا أماه قد نويت أن أشن الغارة على القبائل وأقطع الطرقات على القوافل وأجمع لي مالاً أبلغ به الأمال وأخطب بعد ذلك ابنة عمي ليلى من أبيها.

فلما سمعت أمه كلامه قالت: يا ولدي أنت لا تعرف أن أموال العرب مصانة ولها من يحميها ويذب عنها.

فلم يلتفت الصحصاح إلى كلامها، بل أنفذ سعدى إلى ليلى ليعلمها بأنه سائر في تلك الأيام ويسألها الدعاء .

فمضت الأمة وأعلمتها بما قاله من الكلام فقالت لها: عودي إليه وقولي له يكون في انتظاري الليلة فإني أدبر حيلة من حيل النساء، وما يحس بي إلا وأنا عنده في الخباء؛ لأن الحي كله وشاة ورقبان، فعادت الأمة إليه، وقصت القصة

عليه.

فلما سمع بذلك قعد يرصد لها النجوم وقد لعبت بعقله أمواج الهموم وتوسد بأخدوده وذراعيه والنوم قد غلب عليه.

فبينما هو كذلك وإذا هو بليلى قد أقبلت، فلما أحس بها نهض قائمًا على قدميه، فقالت له: يا صحصاح لو كنت صادقًا في الغرام لما ألفت عيناك المنام.

فلما سمع كلامها بقي خجلان من توبيخها وقال: والله يا حبيبة القلب ما أنام إلا لعلي أرى طيفك في المنام.

ثم إنهما تشاكيا إلى الصباح ومضت إلى منزلها من بعد ما ودعته.

* * *

الصحصاح والعبد البطاح قابض الأرواح!

وأما الصحصاح فإنه لما طلع عليه الصباح ركب جواده وخرج يطلب الصيد والقنص، وبقي طول النهار يتسلى من ليلى بمناشدة الأشعار إلى أن غابت الشمس وولى النهار، فأقبل وجواده موقور من الوحش والغزلان والأرانب ثم دخل إلى الخباء وقال لأمه: اضرمي النار واصنعي لنا شيئًا من الطعام ففعلت ذلك وأكل هو أمه حتى اكتفوا وقعد يفكر في ليلى وحسنها وجمالها إلى أن جن عليه الليل، فلم يطق الصبر فشكى إلى أمه نار الفراق وقال لها: اذهبي إلى ليلى واشرحي لها حالي، وأنا ما فيه من الاشتياق فإن كان لها قدرة على لقائ فتزورني قبل ترحالي.

فقالت: يا ولدي ها أنا سائرة إليها وقادمة عليها.

ثم إنها خرجت من عنده وسارت حتى قدمت إلى ليلى وأخبرتها بحا، فرقت وبكت من شفقتها عليه، وقالت لها: سيري إليه واقرئي سلامي عليه، وها أنا في الأثر.

فخرجت أم الصحصاح وهي خائفة على ولدها من عمه عطاف، وخرجت ليلى وراءها فوصلت في عقبها ودخلت على الصحصاح فرأته نائمًا فأيقظته من منامه وقالت له: هذه صفة من يكون هائمًا.

فقال لها: والله يا بنت العم ما نمت إلا طمعًا في الخيال، فتقدمت إليه وقبلته بين عينيه فضمها وضمته أيضًا إليها.

ثم إنهما قطعوا الليل بالشكوى وكثرة الاشتياق والجوى حتى طلعت غرة الصباح فعولت ليلى على الرجوع، فبكى الصحصاح عند ذلك وناح.

وخرجت ليلى وهي مخفية من أحد الرقباء حتى وصلت إلى المضرب فحست بها بعض الإماء، فأعلمت أبوها عطاف، فاحمرت أحداقه، وكاد من الغيظ أن يقطع عروقه، وجذب السيف وهم أن يقتل ابنته فوقفت أمها في وجهه وقالت له: يا ابن العم ما حالك؟

فأعاد عليها ما قالت الأمة، فقالت: يا ابن العم لعله يكون أحدًا غيرها وقبل ذا وبعده ما دام الصحصاح قد ركب لا بد له أن يقتل فعلم صحة قولها وأغمد سيفه وخرج.

وبقي الصحصاح مدة خمسة أيام ما رأى أثر فتزايدت به الأشواق واحترق بنار الفراق، ولم يطق الصبر إلا بالتلاق، فأرسل خلف الأمة التي تمضي فجاءت إليه فأنفذها إلى ليلى تعلمها بما هو فيه من شدة الغرام، وأمرها أن تسير إليها من كل بد في هذه الليلة لأمر قد عرض له ولا يطلع عليه سواها.

فمضت الأمة وأخبرت ليلى بما قاله الصحصاح فقالت لها: ارجعي وقولي له ينتظرني إذا انتصف الليل.

فخرجت الأمة وجاءت إليه، وعرفته بما قالت ليلى، ففرح وقعد لها في

الانتظار حتى انتصف الليل، وإذا بها قد أقبلت، فقام إليها واستقبلها من باب الخباء، ولثم كل واحد منهما صاحبه.

ثم حدثته بما جرى لها مع أبيها، وكيف جرد سيفه عليها، وأراد قتلها، فتعجب الصحصاح من قوة قلبها وقال لها: يا ليلى قد عولت على أخذ الأموال من أحياء العرب، وآتي بالنوق والجمال، وأخطبك من أبوك بين الملأ من النساء والرجال.

فبكت وقالت: يا ابن العم لا تلقي نفسك إلى التهلكة فربما تلحقك آفات المحبة، وأبقى بعدك حزينة ولكن اصبر إلى أن يفرج الله -عز وجل- فالأيا دول والمثل يقول: «من صبر قدر ومن عجل ندم».

فقال لها: يا ابنة العم، والله لا بد من خوض المعامع والدخول في المهالك فإما هلاك وإما ملاك، فاسأل لمن أبلانا بالفراق يمن علينا بالتلاق.

ثم بات في ألذ ما يكون من العتاب والشكوى إلى آخر الليل، ثم قامت وودعته وهي تبكي وكذلك الصحصاح، ثم إنه بعدها ودع أمه وخرج وركب جواده واعتد بعدته فزجرته أمه، فلم يسمع.

ولم يزل سائرًا في الليل والنهار وهو يأكل من صيد الغزلان ويشرب من ماء الغدران ستة أيام وفي اليوم السابع أشرف على مرج أفيح وعيون ماء تسرح، ومضارب في الأرض.

فلما نظر إلى ذلك المال والجمال طار فرحًا ومال مرحًا وحمل بهمة قوية وعزمة كلابية، وقد حمله هوى ليلى على كل بلية، فاقتطع من ذلك المال نحو

ثلاثة آلاف ناقة وجمال، فنظرت العبيد إلى فعاله، فثارت إلى قتاله بالعدد والرماح والسيوف.

وفي أوائل العبيد عبد مثل الفيل فحمل على الصحصاح وقال له: يا وجه العرب! أما تعرف هذه الأموال لمن حتى تغير عليها وحدك؟ والله ما أنت إلا عادم عقلك، ولا شك أنك سمعت أن أبطال الحي قد نهضوا لشن الغارة على بني فزارة، فلأجل ذلك غرك الطمع يا ويحك أوفى من ألف عبد كجنح الظلام، وأمير الحي في خيمته ولم يمض عشيرته، وها الحي قريب منه فعد على عقبك، فأنا المسمى البطاح المعروف بقابض الأرواح.

فلم يجبه الصحصاح بكلام، بل ضربه طير رأسه على التراب، وجال في العبيد فأوثقهم جراح وصاح في الباقين: سوقوا الجمال!

* * *

الصحصاح يأخذ ثأر أبيه

هنالك ساقت العبيد النياق والجمال، وخافوا من هول ضربته للبطاح، ثم ساقوا ساعة وإذا بالغبار من خلفهم قد ثار وانكشف عن عشرين فارسًا كأنهم الليوث، وفي أوائلهم فارس كأنه أسد عابس.

فلما دنا من الصحصاح ناداه: يا ابن الخنا مثلك يغير على مثلنا، والله ما ظننتك إلا جمع كبير، وما دمت أنت وحدك فانج بنفسك من قبل أن تسكن قبرك.

فقال له الصحصاح: دونك والمال، فإن من دونه أدرع وسيف كل مال قطع فدونك والقتال إن كان فيك ما ترد عن نفسك ومالك.

فلما سمع الفارس كلام الصحصاح نظر إلى وجهه كأنه يلوح من تحت اللثام كأنه بدر التمام علم أنه فارس همام والشجاعة تلوح منه كعنتر وفي العفاف كحيدر.

ومن غرائب هذه السيرة أن هذا الفارس المقدم على هذه العشرين هو الغطريف بن مالك الطائي قاتل جندبة أبو الصحصاح، ومن تحته «مزنة» فرس أبيه، وكان الحي خاليًا من بني طيء لأنهم شنوا الغارة على طائفة من بني

فزارة، ولم يتخلف في الحي سوى الفطريف لأمر عرض له أعاقه عن المسير مع قومه.

وحمـــــل كل واحد منهما على صاحبه وأخذ يطاعنه ويضاربه فجالا طويلاً واعتركا مليًا، وعـــــلا عليهمـــــا الغبار عن الأبصار فسبقه الصحصاح بالضربة من قدام فسقط رأسه كما يسقط القطر من الغمام وصاح: لا مفر من الكفاح ثم نادى: هل من مبارز هل من مناجز؟ فلا بد من أخذ الأموال والعبيد وأفينكم قريبًا وبعيدًا لأنه ما أرجع خائبًا من بعد ما قطعت الأعناق.

فلما نظر الفطريف إلى كلامه وحسن نزاله قال لرجاله: ويحكم يا بني عمي هذا صبي وجهله يحمله على فعاله، فليبرز إليه آخر منكم.

قال: فبرز فارس فقتله، وثاني فجندله، وثالث فرجله، ورابع فنكسه، وخامس فقتله، وما أمهله.

فلمـــــا نظر إليه بقية الفرسان وقد قتل أصحابهم حملوا عليه حملة واحدة فهنـــــالك حمل وقد اشتد به القلق، وزاد به الحنق، وما كانت إلا ساعة حتى التقط أرواحهم بالســـــنان ولم يبـــــق حول الفطريف منهم إنسان.

هنالك قال: يا صبي وهبتك نفسي ودم أصحابي، وخذ من المال ما شئت، وانج بنفسك سالمًا من قبل أن تحل بك العظائم!

فقال له الصحصاح: لا عدمت هذه الهمة فالزم نفسك الزامًا إن كان لك في نفسك حاجة، ولا تطمع في رد الغنيمة فهذا شيء لا تراه إلا أن عدمت الحياة.

فاشتد غضب الغطريف وقال له: ويلك لو عرفتني ما نطقت بهذا الكلام، ولا كان لك جنان تقوم في هذا المقام؛ لأني أن الغطريف المحامي بلا تكليف سيد بني طيء الذي كويت قلوب العرب كيًا وسقت غنائم العرب من برها وبحرها، وقد ضجت بني كلاب من مقاتلي وسائر العرب من مناصلي.

قال: فصاح الصحصاح وقال: وأبردها على قلبي وكبدي، فالحمد لله الذي وقعت في يدي حتى آخذ ثأري بيدي وثأر والدي.

فقال الغطريف: ويحك من تكون؟

فقال: أن الصحصاح بن جندبة الكلابي، تتدبك النوادب في السهول وفي الروابي، فبالله عليك يا غطريف هذه الفرس التي تحتك هي مزنة التي كانت سبب يتمي والمحنة.

فقال له الغطريف: نعم، هي مزنة، ولها عندي اليوم عشرين سنة ما تغيرت صفاتها الحسنة.

فقال له الصحصاح: يا سيد بني طيء ما أطال الله عمرها إلا ليردها على أهلها.

وتصادما الاثنان كأنهما جبلين واختلفا بينهما ضربتان فكان السابق بالضربة الغطريف، فزاغ عنها الصحصاح وحمل عليه وطعنه في صدره أطلع الرمح من ظهره، فوقع على الأرض عن سرجه، فعند ذلك قفز الصحصاح من على ظهر حصانه وصار على ظهر مزنة، وجمع الخيل والأسلاب، وصاح في العبيد وقال لهم: سوقوا المال وإلا حق من أرسى الجبال ضربت رقابكم في الحال.

ثم إن الصحصاح نزل إلى الغطريف وقطع رأسه وحطها في مخلاته وعاد إلى ظهر مزنة، ثم إنه قال: لقد نال القلب ما اشتهى.

وسار الصحصاح إلى بني كلاب، ومزنة كلما شمت رائحة البلاد صهلت بصوتها الرخيم، فيحن لصهيلها الصحصاح.

وما زال الصحصاح سائـــــرًا إلى أن وصــــل إلى حي بني عامر وهو كأنه القمر الزاهر، وقد رفع رأس الغطريف على رمحه، وسلمه إلى بعض العبيد.

ولما أن قرب من الديار وثارت الرجال وقد رأت مزنة إلى الخباء والمراعي التي ربيت فيها أزعجت الحي من صهيلها، فانزعجوا وقد فرح الناس بالصحصاح فرحًا شديدًا وعظم في أعينه، ورجع ونزل في بيت أمه وأركن إلى رمحه على بابه ورأس الغطريف عليه.

وأحدقت به الرجال، وأهل الحي، فوهب وأعطى وعقر وأطعم، وفرق الخيل والجمال، وأحبته الرجال وفرسانهم، ومالت إليه الأبطال وأصحاب الشجاعة

وصار الشباب ينزل عند مضربه ، واشترى بيتًا عالٍ، وصار القوم يجلسون فيه للخلوات.

* * *

نجا الصيد ووقع الصياد!!

وبلغ الخبر لعطاف فركب وسار إلى الصحصاح، فقام إليه الصحصاح وأكرمه وقدم له من الهدايا شيئًا لا يحصى مما قد وصل إليه، وقبل الأرض بين يديه، وقدم له الخيل والنوق والجمال.

فتعجب من ذلك عطاف، وقد نظر إلى الشباب القيام الذين هم على باب مضربه فشق علهي ذلك، ورجع إلى نحو أبياته وهو متعجب، وخلا بخواص القوم وقال لهم: والله ما أنا لا أبيح بسري إليكم، وأظهر لكم مكتوم أمري! اعلموا يا جماعة أن الصحصاح يكون سببًا لقطع آثار بني كلاب، لأنه قتل الفطريف وجماعته من بني طيء تجمع خلفها ورجالها وأبطالها، ويسيرون إلينا، ويسفك الدماء بيننا وبينهم ويكون سببًا لإقلاعنا، وقد انضم إليه من أوباش الحلة وسوادها، وكل من لاحت له الفائدة والساعة تقوي شوكته، ولا آمنه على الحلة؛ لأن المملكة كانت لأبيه والرجال والشباب إذا رأوه عاصيًا اتفقوا معه، وهو لا شك قاتلي بلا محالة!

فقالوا له: أيها الأمير إنه أحقر من هذا وهو دون ما في نفسك، ولولا ما عرف الناس أنه تربيتك وغرس نعمتك ما أقبل عليه أحد، وها نحن بين يديك

إن شئت قتله قتلناه، وإن شئت نفيه نفيناه!!!

فلما سمع منهم هذا الكلام قال لهم: إني أريد فلانًا وفلانًا، وأدعوهم إليَّ.

ثم إنه جمع القبيلة وأبطال العشيرة وقال لهم كما قال لخاصته.

فقالوا له: أيها الأمير! ما فينا إلا من بات قلقًا وجلاً لأجله؛ لأننا نعلم أن بني طيء تعادينا، وتكون عداوتهم شؤمًا علينا، ومع ذلك فإنه قد ذاق طعم نهب الأموال من السادات، وأخذ أسلاب الرجال من القادات، وهم يطلبوننا، فإن نحن قتلناه رضيت العرب عنا،إذا علموا أنه هلك، ونقول لمن قصدنا: نحن لما رأيناه قد أثار الحرب بيننا وبين العريان قتلناه لأجلكم ثم إنهم تحالفوا عل ذلك، وإنهم على قتل الصحصاح موافقين.

فبلغ الخبر إلى ليلى فقامت عليها القيامة، وبكت سرًا وقد أرسلت إلي بعض الإماء أعلمته بذلك وهنته بالسلامة ويأخذ ثأر أبيه من عدوه، وتقول له : يا ابن العم لا خلى جسد من حسد، واحترز على نفسك، فإني لا آمن عليك من احتيال أبي عطاف، واعلم أنه قد وقع في نفس أبي أنك قاتله؛ لتأخذ مكان أبيك فاحترز على نفسك ولا بد أن أجتمع بك وأحذرك، ثم إنها قالت للأمة: عرفيه ما عندي من الشوق وعظم الحرق، وأخاف على نفسي التلف.

فسارت الجارية ودخلت عليه وأعلمته بالخبر، فشكر ليلى على ذلك وقال للأمة: عرفيها ما عندي من الشوق، فسارت الأمة من عنده ودخلت على بنت عطاف عمه، وأعلمتها بما قال لها.

فهذا ما كان منها، وأما ما كان من عطاف، فإنه ما زال يحث عليه العريان

إلى أن كان في بعض الأيام أرسلت ليلى إلى الصحصاح وأعلمته بذلك، فأرسل يقول لها: أما أبوك عطاف فإن كان عنده إنصاف فما أرى منه إلا بديع الألطاف، وإن كان ما عنده ذلك فهو كلام الأعداء والحساد الذين هم يوقعون الفساد بين الناس، والله يجعلني لهم بالمرصاد والكفاية من الله تعالى، فارجعي إليها وقبلي يديها.

فرجعت الأمة إلى ليلى ثم أعلمتها بما قال الصحصاح، فالتهبت بالنار من فرط الشوق، وعضت على أناملها.

فهذا ما كان من ليلى، وأما ما كان من الصحصاح فإنه قام على ظهر مزنة، وقد أوسع في البر يطلب مواضع الوحش، ومكانه ويخرجه من مواطنه، ولم يزل يزعجه من منازلة إلى أن صاد عشر غزلان فيهم واحدة كحيلة العيون مسودة الجفون.

ثم إن الصحصاح أطلق الغزال، ولما أن سارت من الوثاق سارت تمشي وتتلفت خلفها فقال الصحصاح: والله لقد صدقتِ ، وما من المروءة إطلاقها وحبس رفاقها، ثم إنه أطلق الغزلان.

فبينما هو على ذلك إذ سمع حوافر الخيل.

وكان السبب في ذلك أن عطافًا لما أن خرج الصحصاح من الحي أعلموه به، وقالوا إنه خرج إلى الصيد والقنص، فطلب عبد يقال له رفاعة، وقد ضم له عشر فوارس من الأبطال المعدودين للغارات وقتل السادات، وكان قد أخذ عليهم الأيمان على قتل الصحصاح، فقال لهم: اذهبوا إليه وأظهروا له في زي

بني طيء، وأنتم معصبين ملثمين.

فقالوا له: سمعًا وطاعة فنحن إلى قتله أشهى من الصغير إلى ثدي أمه.

ولما أن كان في هذه الأوقات وخرج الصحصاح أرسل خلفهم وأرسلهم مع العبد، فساروا في زي بني طيء، وما زالوا سائرين إلى أن أشرفوا على الصحصاح، وسمع وقع حوافر خيلهم، انتبه مما كان فيه.

فلما رأوه نادو: يا لطيء! فلما أن سمع نداءهم قال: لبيكم اليوم ألحقكم بالغطريف.

ثم إن الصحصاح حمل عليهم وفرحت الخيل بإطلاق أعنتها، وقد لعبت الصوارم القاطعة والرماح الخارقة، ولاح لهم الموت بأركانه الواسعة، وحمل الصحصاح في أوائلهم وقد علا الصياح، وعاد النهار كالليل، فعند ذلك طعن الأول في صدره طلع السنان، يلمع من ظهره أكثر من ذراع، والثاني والثالث عاد عمرهم إلى الانقطاع، والرابع طعنه سار دمع كأنه شلال.

ولم يزل يكر عليهم إلى أن قتل الجميع، وتركهم بين جديل وضليع.

فلما أن فرغ منهم رأى الصحصاح إلى واحد منهم وقد كشف عن لثامه. وإذا هو من بني عمه، فندم حيث لا ينفعه الندم، وقامت عليه القيامة، ونظر إلى وجوه الجميع فإذا هم أبطال العشيرة، ففاضت عبرته، وقويت حسرته، وعلم أن ما حملهم على ذلك إلا الحسد، وقد بان له قول ليلى وعلم أن ذلك من عمه عطاف، وما أتوا إليه إلا أرادوا قتله فنجا الصيد ووقع الصياد!

ولما دخل إلى الحي أعلموا عطافًا انه رجع سالمًا، ولم ترجع السرية التي أرسلها.

فقال عطاف: لعلهم ما عرفوا مكانه، وقد خالفوا في الطريق وهذا من عدم التوفيق!!

هذا وقد صبر عطاف إلى أن أصبح الصباح، وأضاء بنوره ولاح فركب وطلب بيت الصحصاح، وأخذ وسار على الغدارن، فما زالوا سائرين من مكان إلى مكان إلى أن أشرفوا على المكان الذي فيه القتلى فوجدوا القوم صرعى.

فلما رآهم عطاف مزق ثيابه وعظم مصابه، ثم إنه قال: ما فعل بهؤلاء الفعال إلا بني طيء لأجل ثأر الغطريف.

فقال له الصحصاح: قد يكون ذلك أيها السيد!، وأنت ما تقعد أن أخذ ثأرهم، ولا بد لي أن أجعل ذمة العرب كلها بيدك.

فقال له عطاف وهو قليل الإنصاف: نحن ما نريدك أن تقيم عندنا، فاخرج عنا، وإلا قصدتنا الأعداء والعريان، وسرنا معهم مقيمين في الأحزان، ولولا أني ربيتك ما كان لك عندي جوابًا إلا الحسام.

فأطرق الصحصاح، ولم يجبه وكاد فؤاده أن يحترق باللهب، وعاد إلى الحلة منكسر القلب، وهو تارة يضمر شرًا وتارة يضمر خيرًا، وقد أقام على ذلك الحال.

وقد حملت بني كلاب القتلى، وقد شاع الحديث، وندبت النوادب من كل جانب، وعاد الفرح ترحًا، وقد ازدادت في الناس في الصحصاح ذمًا بعد

الشكر، وقالوا: ما نزلت بنو طيء علينا إلا حتى يفنونا.

فبعث الصحصاح إلى ليلى، وقد أعلمها بجميع ما قد جرى، فقبحت فعل أبيها وعزمت على الاجتماع به، فبعثت تقول له: لا تخرج من الحلة حتى أجتمع بك وأقول لك ما تفعل.

فأقام ينتظرها ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع أنفذت إليه تقول : اعلم أن أبي خرج عليَّ وقد وكل بي ثلاث جوار يحفظوني ليلاً ونهارًا، وقد تكلمت أمي في ذلك، ففزع عليها بالسيف، وأراد قتلها، فاحفظ نفسك منه، واعلم أنه في نيته قتلك، وقد علم أنك الذي قتلت رجاله.

فلما سمع الصحصاح ذلك الكلام، وأنها حجبت عنه ضاقت عليها الأرض بما رحبت، وقد خرج على وجهه يريد الصيد.

وأما عطاف فإنه سار وأخذ معه خمس عبيد وكانوا حماة الحي كل واحد منهم يريد لرأسه رجال، وما صحب عطاف تلك العبيد من دون العرب إلا حتى يظهر حسده الشنيع، وفعله الوضيع، وقد عزم على قتل الصحصاح، ووقفوا لشره، وقد سبقوه إلى بين يديه.

وكان الصحصاح قد خرج وهو شاك في السلاح، لأنه احترز على نفسه من العائبين والخائنين، وقد سار عطاف في الخمس عبيد وهو شاك في السلاح، وجدوا في المسير حتى علم أن الصحصاح قد سار بين يديه بفرسخين، فعطف راجعًا، وقد علم أنه لرأس الصحصاح قاطعًا، فهو كذلك، وإذا بغبار قد ثار، وملأ الأقطار، ثم انكشف بعد ساعة الغبار عن خمسين فارس بالرماح الطوال

و السيوف الصقال، وفي أوائلهم فارس عليهم قميص أحمر، وعلى رأسه مطوق أخضر، وهو راكب على جواد أصفر، ووجهه كأنه القمر.

فوقف عطاف وظن أن القوم من أصحاب الغطريف، فنادى على العبيد وقال لهم: اعلموا أن السعيد من اكتفى بغيره وهؤلاء بني طيء قد خرجوا يتوقعون خروج الصحصاح، وأنا أسلم عليهم وأرفهم مكاني، وأعلمهم أني أنكرت على الصحصاح، وما خرجت إلا لقتله، وأقول لهم إني واصل إلى هذا من أجله، وهو واصل إلى هنا، وأتركهم يسقوه كأس الحمام والفناء، ونظفر نحن بالمنى، وإذا فرط فينا الفرط وسألونا عنه حلفنا لهم أننا ما قتلناه ونكون صادقين.

فقالوا له: هذا هو الصواب، ولقد كان الصحصاح ما يسلم نفسه حتى يقتل منا واحدًا أو اثنين.

ثم إن عطاف بعد ذلك قصد الجمع وسار نحوهم وسلم عليهم، فردوا عليه السلام وقد تقدم إليه مقدم القوم، وقال له: من تكون يا وجه العرب؟

فقال: أنا عطاف أمير بني كلاب.

فصاح المتكلم، وافرحتاه هذا يا قوم قاتل أبي، وقاطع حسبي، ونسبي هذا عطاف بن الحارث.

وكان هذا الغلام من بني كندة واسمه «حريث بن الحجاج» وكان عطاف قد قتل أباه، وكان قد رُبي يتيمًا.

فلما كبر أصبح بطلاً من الأبطال، وقد هوى جارية يقال لها «الفيداء» وكانت ذات حسن وجمال، وقد واعتدال، وكان ذلك الغلام هائمًا بهواها فخطبها من أبيها، فقال له: يا ولدي ما أنت إلا كثير المال، ولكن ما أزوجك ابنتي إلا حتى تأخذ ثأرك من قاتل أبيك، وتستوفي دمه، فكيف أزوجك ابنتي والحمامة على قبر أبيك عطشانة، لا تهجع إلا أن قتلت قاتل أبيك، فحينئذ أزوجك ابنتي وهذا منيتي.

فلما سمع حريث هذا الكلام قال له: يا عم ومن هو قاتل أبي؟

فقال له: عطاف قتله في بعض الغزوات، ودارت عليه الآفات.

فلما سمع حريث كلامه انقلبت عيناه في أم رأسه حرصًا على زواج الفيداء ولأجل القول الذي سمعه منه، وقد أقسم بمن مرج البحرين أنه لا يشرب خمرًا ولا يبرم أمرًا حتى يقتل قاتل أبيه، وما في بني كندة إلا من قال: نحن لك وبين يديك فجزاهم خيرًا وأوسعهم شكرًا، وقد اختار منهم خمسين فارسًا، وقصد بهم حي بني عامر، وقال: نكمن لعطاف حتى يخرج، وإن لم يخرج اقتحمنا الحي، ولو كان عدد بني كلاب عدد التراب.

ثم إنه سار من حلته إلى أن أتى المكان الذي كان كامن فيه عطاف لأجل قتل الصحصاح، فلاقاه وقد صبحه، وما أحس عطاف بنفسه حتى أحدقت به الرماح وقتلوا عبيده وأرادوا قتله فأشار عليه بعضهم وقال: لا تقتلوه إلا في حي بني كندة، فرأوا ذلك صوابًا.

ثم إنهم ساروا وقد شدوا عطافًا على جواده عرضًا وشدوه من رقبته إلى

رجليه، وقد نزل الذل عليه وسار يبكي على نفسه والغلام يقول له: لو كنت خفت من القتل ما قتلت أبي، وقد قال القائل: «كما تدين تدان، واعلم أنه قد انقلبت عليك نوائب الزمان بالذل والحرمان وسار يضربه بالسيف صفحًا على رأسه حتى قطع المفاوز ووصل إلى الحي.

ولما أن وصل الغلام إلى حيه دخل إلى أبياته وربط عطاف على مضربه، ووكل به عشرون عبدًا، ثم إنه أرسل إلى جميع خلفاءه من القبائل يعلمهم بالحضور وشرب الخمور، وقتل عطاف في البيداء وتزيج الغيداء فجاؤوا من كل مكان.



ليلى تنقذ حبيبها من مكر أبيها

فهذا ما كان من هؤلاء، وأما ما كان من الصحصاح فإنه أقام ذلك اليوم يتصيد، فلما رجع إلى الحي دخل بيته فأعلمت زوجة عمه أن زوجها ما رجع، وأن الصحصاح قد رفجع، فعلمت أن ذاق التلاف، وقالت: هكذا جرت النوبة الأولى، وأنها لم تقدر تظهر ذلك، فدخلت على ابنتها وقالت لها: يا بنيتي! اعلمي أن الصحصاح قتل أباك!

فقالت لها: يا أماه هذا هو ظنك أوَ جاءك من أعلمك؟

فقالت لها: إن أباك لم يرجع، ومعه خمس عبيد لقتل الصحصاح، والصواب أن تمضي إليه وتقسمين عليه بحياتك، فإنه يحدثك بالحال، فعندها سارت ليلى، وأتت إلى الصحصاح ودخلت عليه.

فلما رآها الصحصاح وثب إليها قائمًا، وتلقاها وسلم عليها، فرآها باكية العين.

فقال الصحصاح: ما بالك يا ابنة العم؟

ثم إن ليلى قالت : يا ابن العم ما صنعت بأبي؟

فقال لها: وما حاله يا حبيبة القلب؟

فحدثته بالحديث من أوله إلى آخره، وأنه خرج ولم يعد، وقد انقطعت أخباره، فبحياتي عندك يا ابن العم، هل معك منه علم؟

فلما سمع الصحصاح منها ذلك الكلام حلف وأقام الأيمان والإسلام والهوى والغرام أنه ما رآه، ولا يعلم أين هو ولكن لا بد أن يقتفي آثاره في تلك الساعة لأجلها.

فقالت له: لا تمض في الغياهب؛ لأني أخاف عليك من المصائب، فاصبر إلى الصباح وودعته، ورجعت إلى أمها وأعلمتها بما قال الصحصاح، وأنه عند الصباح يركب على مزنة ويقتفي أثره ثم يطلب خبره.

فهذا ما كان من ليلى، وأما ما كان من الصحصاح، فإنه ركب عند الصباح، وسار وإذا هو فارس من بني كلاب قد التقاه، وكان ذلك الفارس قد ضل له بعير، وأعطى خبره أنه في حي بني كندة، وكان صعلوكًا لا يملك سواه، سار إلى حي بني كندة، فرأى عطافًا مشدودًا عند القوم، وأنهم ينتظرون قدوم أصحابه، فرجع الفارس فقابل الصحصاح راجعًا فأخبره بما جرى لعمه، فرجع الصحصاح، ونادى: الثأر، الثأر يا بني بني كلاب؛ فأجابوه من كل مكان فأخبرهم بما سمع عن عمه عطاف.

فقالوا له: أيها الأمير! نسير إليهم بالرماح والقواضب، ونطرح عليهم المصائب.

فقال لهم الصحصاح: هذا هو الصواب، ولكن سيروا بنا من وقتنا على بركة الله تعالى، فساروا ولو كان لهم أجنحة لطاروا، وما زالوا سائرين إلى أن أشرفوا على وادي الجفال.

فقال لهم الصحصاح: انزلوا ها هنا، فإنكم في ألف فارس وبني كندة أقل ما يكون عدتهم عشرة آلاف فارس، والصواب أنكم تكمنون هنا إلى أن أدخل الحي، فأكشف لكم الخبر، ثم أعود وأشور عليكم بما فيه الصواب، فاستصوبوا رأيه.

ثم إن الصحصاح ركب على مزنة، وسار إلى أن دخل الحي، وقد تلثم كأنه من العرب القادمي، ودخل إلى المضارب، ونزل عن مزنة وربطها في بعض الأطناب، وإذا هو بأمة سوداء وقد خرجت إليه وهي تقول: أهلاً وسهلاً بهذا الضيف النازل، والضيف الواصل! ثم إنها فرشت له بساطًا وقالت له: اجلس على الرحب والسعة.

فجلس وقد أقب عليه رجل مهاب، مليح الأثواب، فأتى إليه وحياه بالسلام، وكلمه بألطف الكلام.

ودخل إلى المضرب وخرج معه جفنة وعليها من الطعام الثريد ما يشتهيه الجائع، وقال له: جابر الزاد يا وجه العرب!

فامتنع الصحصاح من الأكل لأنه في نيته القتال، فلم يأكل لهم زاد.

فقال له الرجل: أبيت العيش، فما بالك لا تأكل من طعامي؟

فقال له الصحصاح: أنا ما تركت الزاد إلا لنذر عليَّ لأنني لا آكل اللحم حتى أرى حاجتي تقضى!

فقال له: وما هي؟

فقال: إن عطافًا قتل أبي، وقد نذرت ألا آكل اللحم حتى أرى عطافًا قتيلاً.

فقال له الشيخ: اعلم يا هذا أن الله تعالى قد قبل نذرك، وجعل على اللحم فطرك، وما بقي من حياته إلا قدوم العريان، ويضرب بالصباح، فأول من يكون يضربه أنت.

فدعا له الصحصاح وشكره وقال: يا مولاي في أي بيت هو؟

فقال له: اعلم أنه في ذلك البيت.

فنظر الصحصاح إلى ذلك البيت، وإذا على بابه عشرة من الخيل والناس إلى البيت يدخلون، وإلى رأس عطاف يلطمون، ويقولون له: أنت الذي قتلت حجاج بن عامر ذو الفضل والبر الوافر، سوف نرى قتلك، وأنه قد أيقن بالموت.

وقام الصحصاح من عند الشيخ، وأتى إلى ذلك البيت، وأشرف على عمه وهو مربوط، فعاد إلى مكانه، وجلس وأكل الثريد واللحم كما يأكل العقاب الكاسر، وقد رفع الباقي معه في مزود لوقت الحاجة إليه.

وقد أقام عند الشيخ بقية ذلك النهار، ولما أن أتى الليل وثب الصحصاح وسار من مكانه إلى البيت الذي فيه عطاف، وأتى من ورائه، فوثب عليه كلب من كلاب البيوت، فرمى له اللحم، فأتوا إليه الكلاب وقد اشتغلوا عنه بذلك.

ثم إن الصحصاح شق البيت من ظهره ودخل منه وسار إلى عند عطاف، وقد وضع يده على رأسه، فقال له بصوت ضعيف: من أنت.

فقال: أنا الذي خرجت أنت من قبيلتك حتى تقتله، فما الذي فعلت معك حتى تقتلني وتستحل إراقة دمي من غير جناية؟

فحلف له أنه لم يكن يريد ذلك، وأنه مشتاق إليه وإلى وجهه المليح.

فعندها فك الصحصاح قيده ،وقال له: قم واتبعني.

فقال له: والله ما أقدر أمشي خطوة واحد.

فقال له: إن كان ذلك، فالعبيد نيام، فأنا آخذ لك فرس من هذه الخيول القيام وأركبك عليه، وأنا أركب فرسي، ونطلب البر.

فقال له عطاف: افعل ما بدا لك بارك الله فيك.

فعندها خرج الصحصاح، وأتى لعمه بجواد وكان من جياد الخيل وأركبه وأركبه إياه، وركب الصحصاح على ظهر مزنة، ثم سار الاثنان وقد خرجا من المضارب كأنهما البرق الخاطف فانتبهت العبيد على صوت الركض وصياح الفرسين، فثارت الرجال من كل جانب، ودخلت خلفهم تحت الغياهب، وزعقت

الرجال من كل مكان، وكان الصحصاح قد قرب من وادي الجحافل الذي فيه بني كلاب، فعندها تصايحت الرجال وسالت الدماء، وانقطعت الآجال، وقد جال الصحصاح ولعبت السيوف بالأرواح.

وما زالوا يضربون بني كندة بالسيوف ويسقونهم شراب الحتوف حتى ولوا الأدبار، وركنوا إلى الفرار، وتبعوهم بنو كلاب إلى المضارب والقباب إكرامًا للصحصاح، وعادوا طالبين أرض بني كلاب، هذا والصحصاح يقول لعطاف: يا عم ! هل بقي في قلبك سخط؟

فقال له: لا وذمة العرب، بل ذهب الغيظ وبيني وبينك قرابة ونسب، ولا عدت من اليوم أظهر لك غدرًا، ولا أخفي عنك أمرًا، ولا أقصد لك مكرًا.

فطاب قلب الصحصاح وقد ساروا مجدين، وعطاف لا يصدق أنه من السالمين، وقد وصلوا إلى الحي وسبقهم البشير يبشر بقدومهم، فخرجت النساء بالدفوف، وخرجت ليلى بين النساء والبنات، فسارت كأنها البدر بين الكواكب في ظلام الليل الساكب.

وقد دخل عطاف على زوجته وخلي بها وقال: يا ابنة العم إن الذي أردته انقلب عليَّ وما أعلم ما يكون عليَّ؟

فقالت له: يا ابن العم إنني قد سمعت من أهل الحي حديث الصحصاح بالأوصاف الملاح، وأنه بطل جحجاح، لا يمل الكفاح.

فلما سمع عطاف من زوجته هذا الكلام قال لها: والله ما على وصفه من جناح، وليس الخبر كالعيان، والذي وصفه ما نصفه!

فقالت له: فكيف قلبك في محبته؟

فقال لها: والله إنني كلما أردت أن أحبه ازداد قلبي عليه بغضه، وقل منه النجاح، والله إنه خلصني من الأعداء ولا يستوي قلبي وقلبه أبدًا، وكيف قلبي يحبه وقد مالت إليه الأبطال، وبقيت أنا مسلوب الآمال، وهو لم يخش الرجال، وسوف يأخذ موضعي ويطمع في الإمارة لأنه ابن الأمير جندبة، والثاني أنه شجيع، ومن ذا الذي يختار ملكه ينتقل إلى غيره.

فقالت له زوجته : وعلى ماذا عولت؟

فقال لها: أدبر قلته، وما أزال به حتى ألحقه برمسه.

فقالت له زوجته: اعلم أن الغدر قبيح بالأجانب، فكيف بالأقارب، والصواب أن تزوجه ليلى وتجعله عبد بين يديك، واعلم أنه إن فعلت معه ذلك يكون عبد في خدمتك، ويحامي عن عيلتك، واعلم أن الله سبحانه وتعالى من كرمه يجازيك على نيتك، وقد ورد في الخبر «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى».

فقال لها عطاف وقد غضب منها: أقسم بالله أعز الأقسام لو عرفت أن هذا تقولينه على سبيل الإشفاق علوت رأسك بهذا الحسام الفصال.

فلما سمعت منه هذا الكلام علمت أنه لا يلين للملام، فتركته من ذلك الكلام، وقد وثبت إليه وقبّلت رأسه ورجليه وقالت له: أنا ما قلت هذا الكلام إلا حتى أعلم ما في نفسك، فلا أذاقني الله فقدك، وسوف أفتح لك بابًا في قتله!

فضحك من كلامها.

وكان هناك عبد يقال له «الطنجير» وكان هذا العبد قد ربى ليلى والصحصاح يميل إليه لكونه رباها على كتفه، وأكثر الليالي يبيت تحت رجليها، فقالت له زوجة عطاف: يسير العبد إلى الصحصاح ويقتله في مضربه، وإذا أصبح الصباح ورأوه مقتولاً تقول إن بني طئ قد قتلوه، ويكون قتله على يد غيرك، وتبرأ ساحتك، واعلم أن الرأي السديد أنفذ من الرمح الشديد.

فقال لها عطاف: هذا هو الصواب والأمر الذي لا يعاب.

ثم إن عطاف أنفذ خلف العبد طنجير، وكان اسمه البصاص، فخلى به عطاف، وحدثه بما جرى.

فقال : والله يعز عليَّ قتل الصحصاح، ولكن إذا ضمنت غدرًا نجعل لك قتله قهرًا، لكن إذا كان ولا بد من ذلك فإني أريد خنجرًا قد سقي بماء الأجل ليكون لقتله معجلاً.

فقال له عطاف وقد فرح بذلك: لله درك، ثم إنه أحضر له خنجرًا صنعة الهند وسقاية السند،، وقال له: لك عليَّ المال وخمسون ناقة، وبين من الخاص وجارية تخدمك وأعتق رقبتك، وقد حلف على ذلك وصار عند ذلك العبد الطنجير والله تعالى يدير المقادير.

فهذا ما كان من أمر هؤلاء، وأما ما كان من الصحصاح ، فإنه دخل عليه العبد وهو يقول: حل لك الوصال ومضت أيام الانفصال، وقد حويت بهذه الفعال الثناء الحسن من الأيام والليالي، وحصلت لك على وجه الحلال.

فعرفه الصحصاح، وفرح به وقال له: كيف حال ليلى؟

فقال : إنها في تجهيز أمرها .

فقام إليه الصحصاح وخلع عليه، وقد وعده بجزيل المال والعطاء.

فقال له الصحصاح: بشرك الله بالخير.

فقال له البصاص: أنا الليلة نائم عندك وأحدثك بما قد سمعت من الكلام، ودخل المضرب وصار يحدثه بالأكاذيب حتى نام وسل خنجره، وهم أن يصعد على ظهره ليذبحه، وإذا بصيحة قد أخذته من ورائه وقد أحس بإنسان قبض على عنقه، فالتفت وإذا بثلاثة نفر أحدهما أم الصحصاح والاثنين من أصحابه.

وكان السبب في ذلك أن أم الصحصاح مضت إلى ليلى لتسأل عليهم فعزمت عليها أم ليلى تشاغلها حتى يتم لها الأمر، وليلى على مقالي الجمر، وكانت ليلى قد سمعت الحديث من بعض الإماء، ولم تزل إلى أن وجدت لها غفلة من أمها، ثم قالت لها: يا عمتها الحقي ولدك من قبل أن يقتل، وحدثتها بالأمر الذي قد جرى.

فخرجت أم الصحصاح وهي لا تعقل على ولدها إلى أن رأت اثنين من أصدقاء ولدها، فقال لهما: الحقاني وقد سارت بهما وما زات سائرة وهم خلفها إلى أن وصلوا إلى المضرب، ورأوا العبد قد هم وركب على صدره وأراد أن يذبحه، فقبضوا عليه.

فقالت لهما والدته: أخرجوا هذا العبد إلى الفلاة، فأخرجاه وهو من جملة الموتى، وقد فتشاه فوجدوا الخنجر معه فضربه أحدهما بالسيف أطاح رأسه عن بدنه.

فانتبه الصحصاح من نومه، فما انتبه إلا من حسن الكلام، فسألهم عن ذلك فأعلموه بالحال، فشكر فضلهم، وقد أنفذ إلى ابنة عمه ليلى وشكر فعلها، وقال لها: والله لولاك ما كنا إلا كفأنا أباك، وإلا لأجل خاطرك إذا أراد أن يضربني بالسيف ما أدفعه عني إكرامًا لك.

* * *

الأسد يصلح بين الصحصاح وعمه عطاف

وكان الصحصاح يخرج كل ثلاثة أيام إلى الغدير يسمونه «البحيرة» لأجل كثرة مياهه، وكل المروج تتقلب إليه، فينصب عليه حبائل صيده، وقد علم عطاف بذلك، فقال لزوجته: قتل العبد برأيك ومشورتك، وترك كلامها، وقام ولبس درعًا قصير الأكمام لا يعمل فيه الحسام ولا تنفذ فيه السهام، ولبس على رأسه بيضة عادية كأنها فضة مجلية، وركب حصانًا منسوبًا كأنه الريح، وقال: إنني لا أقدر عليه فربما ظفر بي، ولكن أكمن له من داخل الأجمة، فعندما يأتي وينصب حبائل صيده أحمل عليه وأطعنه من وراء ظهره على غفلة منه في ظهره أخرج الرمح من صدره.

فقالت له زوجته: إنه خصم لا تقدر أن تواجهه والرأي عندنا أن تصالحه، ولا تكافحه، والشجعان عمرهم قصير.

فلما سمع عطاف من زوجته هذا الكلام قال لها: وحق خفي الألطاف إن بحت بهذا الكلام جرعتك كؤوس الحمام.

وفي بعض الأيام خرج الصحصاح للصيد والقنص، وسار إلى الأرض التي قال لها «الجرعا» وكان بينها وبين الخيام فرسخ وكانت كثيرة الوحوش والضباء، فقصدها الصحصاح ليتصيد فيها، وكانت قد رأته إحدى الإماء عند

خروجه فأتت إلى عطاف، وأعلمته بذلك.

فركب جواده وسار طالبًا تلك الأرض التي قصدها الصحصاح، وهو لا يدري ما خبي له في الغيب، وصاحب الغيب يدير الغيب كيف يشاء.

وكان على صدر عطاف درع من الزرد، وقلبه أقوى من الجلمد، وفي كفه حسام مهند، فبينما هو سائر إذ رأى الصحصاح في ذلك المكان فجاء له من وراء ظهره، وحمل عليه وسار إلى أن قرب عليه، وإذا بأسد قد خرج عليه، ثم إنه وثب عليه على غرة منه فاختطفه من تحته وصاح إلى أن ألب الربا والبطاح، فسمعه الصحصاح، فقام إليه ونظره، وقد عاين الأسد وقد لطم بفريسته الأرض، فقام قائمًا على قدميه، وسحب سيفه، وقد تقدم إليه وهجم بقوة قلب عله.

فلما رآه الأسد صاح صيحة ارتجت منها الأرض والبطاح، وأرخى فريسته، وقفز على الصحصاح، فلقيه بوجه كأنه المصباح، وقد ضربه بقوته بين عينيه، وكان الأسد ألقى نفسه ليفعل به مثل ما فعل بغيره فمن قوة البطل وحدة سيفه وقوة حيل الأسد فجاء السيف بين عينيه وخرج من بين فخذيه، فوقع شطرين.

فدنا الصحصاح من الأسد، وقد أخذ قلبه، ودنا من الفارس الذي كان تحته فرآه غائب الرشد مردي في الأرض من كثرة ما مرغه الأسد، ولولا ما كان عليه من الزرد كان قد انعطف فكشف البيضة عن رأسه وشال البرقع والزرد عن وجهه ليعرف، وإذا به عطاف، فعلم أنه ما أتى إلا ليقتله على غفلة منه، فلقاه الله عاقبته وبغيه، فحمله وأخرجه من الأجمة، وقلعه ذلك الدرع الذي

عليـه وطرحـه على جـانب الغـدير ورش الماء على وجـهـه وغـسـل يديه ورجليـه، وهب نسيم الهوى ففتح عينيه، ونظر إلى الصحصاح جالس بين يديه، وقد شطر الأسد نصفين.

فلما أن وقعت عين عطاف عليه استقبح فعله، ورجع على نفسه عند ذلك بالملامة.

ثم إنه قام وقد استوى جالسًا وأقبل على الصحصاح معطفًا وبذنبه معترفًا، وقال له: يا ابن أخي قد بان الخفاء وزال الغيظ والجفاء، ولكن اعذرني فإني خرجت من الحي بحرقتي، فلقاني الله شؤم طريقي، ومن اليوم قد أخلصت لله نيتي وقد نصرك الله على من يعاديك، ورفع عنك كيد من أراد أن يضرك ويوصل كيده إليك.

ثم قال الصحصاح: وحق من أسكن في الأجسام الأرواح وأوجد في الصدور الانشراح وفتح أبواب الرزق بغير مفتاح، وها أنا معتذر إليك من الأمور القباح، ثم إنه رمى نفسه عليه، وسار يقبل يديه ورجليه، فقام الصحصاح إليه وعانقه وقبله بين عينيه وقال له: يا عم هل أنا إلا عبد نعمتك ويتيم بيتك، ولا أعلم غير الله وأنت، وإن كانت نفسك تحدثك بشيء، فهذا سيفي وأنت في حل من دمي، وقل لهم: إن بني طئ قتلوه، فأنا ما أريد إلا أن تجمع شملي بليلى، فأنا والله أحبها محبة عظيمة.

فالتجم عطاف بلجام ثم إنه قال: يا ولدي إنني أريد أن أنام قليلاً فإنني أرى نفسي موعك، وأقول إنني ما أنا سالم في تلك الليلة، ثم إنه وضع درعه تحت رأسه ونام.

وسـار الصـحـصـاح يكبس يديه ورجليـه، فـأخـذته سنة من الكرى، فنام الصحصاح إلى جانب عمه، فرأى طيف ليلى في المنام، وسار يبكي.

وكـان عطاف قـد أفـاق من نـومـه، فـسـمـع الـصـحـصـاح، فـقـال: وحق النبي المنتخب سيد العرب والعجم لا بد أن أجمعكم وأفرح بكم ويسلم شملكم، والآن لا نحتاج إلى صيد الغزلان بعد صياد السباع، وأنا أقسم بمن جعل السماء إيوان والأرض ميدان لا فرقت بينكما على مر الزمان ولا جعلت لك ليلى إلا أمة، وهي من عندي وهبة، واعلم يا ولدي أن البغي سريع مصرعه، والظلم يقتل أهله ويذري صاحبه، والآن فقد زال عندي من الحسد وما كنت أخفيه من الكمد، وقد بدل الله تعالى الغضب بالرضا، وقد عفى عما مضى.

ثم إن عطاف بكى من شدة الفرح، ورجع على نفسه بالملامة، وقال: سر بنا إلى الخيام، وإذا وصلنا جهزنا أمورنا بالتمام.

فلما سمع الصحصاح من عمه هذا الكلام وما أبداه من الملام استحى واطرق إلى الأرض برأسه من كثره هواه والغرام؛ لأن الذي حصل له كان يتمناه فقال له: والله يا مولاي ما أنا إلا عبدك و غرس نعمتك ومن بعض خدامك.

* * *

ورجع الحق إلى أربابه !!

وسـاروا إلى أن أتوا الخـيـام، وقـد دخل كل منهم أبيـاته، وقـد اجـتـمع الصحصاح على أمه وأخبرها بما تم له مع عمه وقال لها: يا أماه جميع ما كسبته من بني طئ فقد وهبته وما بقي معي غير اليسير، وما يصلح أن يكون مهرًا لبنت عمي، وأنا قد نويت أن أسير وأقصد الملك الكبير، ويرزقني الله من مالك الكثير إنه على ما يشاء قدير، فإن عشت رجعت إلى ليلى بالمال الكثير، وإن أتاك خبري، فابكي في المحاضر في البادي والحاضر على الذي مات غريبًا وبسيوف المحبة نهيبًا، وكل ذلك في هوى الحبيب.

ثم إن الصحصاح سار وقل لعبده نجاح خذ على الطريق اليمنى فوالله ما أدرى أي طريق أسلك، وفي الطريق الأولى لما خـرجت من الديار إلى الربا والقفار فوقعت في حي بني طئ، فأخت مزنة وقتلت الملك الغطريف، وفي هذه المرأة أريد أن أقطع المفاوز لأقتل أصحاب المراكز حتى آتي بصداق ليلى، وإن كانت الأخرى فلا ملام على الدنيا.

لكنه لم يسر إلا قليلاً حتى سمع جلبة عظيمة وقعقعة في الجو، فرفع رأسه ونظر إلى ذلك، وإذا بهما بطائران وهما في الجو يسيران فقال: ويلك يا نجاح ما هذان الطائران؟

فقال له: يا مولاي هذا بازان ضائعان، فضرب الصحصاح بالمقرعة على سرجه.

فلما سمع الطائران تلك النقرة نزلا إليه قليلاً قليلاً، فلما قاربان لف الصحصاح على يديه منديلاً وصاح بهما: فنزلا على يديه وهما يظنان أنه صاحبهم.

فلما استقرا على يديه نظر إليهما وإذا هما بازان أشهبان، ورأى عليهما زمرد ولهم مخالب مثل الأسد الأول أشهب، والثاني مثل الكوكب.

فلما عاين الصحصاح ذلك صاح: يا نجاح ! انظر إلى حسنهما.

فقال له نجاح: يا مولاي ما أبركه من صباح.

فقال له الصحصاح: اعلم يا نجاح أن هذا دليل السعادة والنجاح، ولا بد أن أظفر بالصباح.

ثم إن الصحصاح قال للعبد: يا نجاح إن يكونا هذان لبعض الملوك وقد أطلقهما للصيد، فلما أن صعدا للغبوق ومرقا في الجو كل المروق تاها عن الطريق للطروق، وهاتان الدرتان التي مثل بيض الحمام أقسم بالله أنهما يساويان ستة آلاف دينار، ولو أن دفعتهما لعمي عطاف لهانا عنده؛ لأن العرب لا تعرف في الصداق إلا الجمال والنياق، ولكن امض بهما إلى عند والدتي وأخبرها يا نجاح أن سفري مبارك، وقل لها أن تحتفظ عليهما كل الاحتفاظ حتى أعود.

فسار العبد بهما إلى أم الصحصاح، وما زال سائرًا إلى أن وصل إليها وأتى مضارب مولاه، فرأى أمه تبكي ولها دموع سفاح، فقالت له: ما وراءك يا نجاح؟

فقال لها: اعلمي أن ورائي الخير والفلاح وولدك بالسلامة آمن من الندامة، وقد أرسلني إليك بهذان البازان ويوصيك بحفظهما وهاتان الدرتان.

ثم إنه قص عليه ما جرى في أخذهما، ففرحت وقالت: يا نجاح اذهب إلى مولاك وقل له: إن الباز مفاز، واعلم أن الدرتان علامة در الأرزاق من الملك الخالق، ويعود إن شاء الله تعالى بأصناف الصداق، وأنا أقد أودعته لمن لا تخيب لديه الودائع وهو للشمل بعد الشتات جامع.

ثم إنها أخذت البازين من العبد نجاح، وعاد يطلب مولاه، فوصل إليه وساروا طالبين رزق رب العالمين، فبلغ خبره سفره عمه عطاف، فصعب عليه وكبر لديه، ومن شدة ما جرى له غشي عليه، ولما أن أفاق قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم إنه مفتكرًا في أمره إلى أن سمع خبر البازان فسار إلى بيت أم الصحصاح، ونظر إليهما وإلى الدرتين، فقال: والله لقد كان في هؤلاء كفاية.

وما زال الصحصاح سائرًا وهو يقطع الربا والقفار والبطاح ليالٍ وأيام وهو لا يلتقي في البرية لا راكب ولا راجل، فقال عند ذلك الصحصاح: ما أظن ما بقي في البر ساكن ولا سالك ولا مدبر.

فقال له نجاح: يا مولاي! اعلم أن الله تعالى له خزائن في الأرض، وقد أعطاك ما فيه من الكفاية فارجع بنا إلى الأحياء، فقد قيل في الأمثال

السائرات أن للتأخير آفات وإن السعادات لها أوقات وساعات.

فقال الصحصاح: يا نجاح! كف عني هذا الملام فإني متوكل على رب الأرباب الذي أنزل الماء من الغمام الذي هو حي لا ينام.

وسار الصحصاح يقطع الروابي والبطاح إلى أن وصل إلى وادٍ يقال له «المرقب» وهو وادي مشعب الجنبات كثير الغدران كأنه بعض رياض الجنان، فتخير الصحصاح من حسن ذلك الوادي، وانشراح ذلك المكان فهم أن ينزل وإذا هو بصياح عالٍ وصراخ نامٍ وسيوف مجذبة بأيدي رجال مثل السلاهب، وقد قبضوا على شاب ظاهر الجمال معتدل القد أسيل الخد عليه آثار الجد عليل من غير سقم وقائل يقول اقتوله، وآخر يقول اصلبوه، وقد ظهرت جارية مليحة القوام حلوة الابتسام كأنها بدر التمام، ولها وجه أقمر، وفي يدها سيف أبتر، وهي تقول: وحق الركن والحجر لئن لم تطلقوا ابن عمي لأضعن هذا السيف في بطني أخرجه من ظهري، ولا ينال مني أحد منال.

فلما سمع الصحصاح ذلك الصياح قال لعبده نجاح: امض واكشف لي عن الخبر.

فمضى العبد يلب القوم، وكان السبب في ذلك حديث عجيب وأمر مطرب غريب، وذلك أن هذا الوادي كان من قديم الزمان لقوم يقال لهم بني ريان، فانقرضوا على ممر الزمان، وكان قد بقي منهم أميرين أخوين أحدهما يقال لها «عامر» والآخر يقال «زاهر».

وكان «زاهر» الأكبر، وكان أكرم أهل زمانه يقري الضيفان، ويؤمن الفزعان.

وكان أخوه «عامر» شيطانًا مريدًا، وجبارًا عنيدًا يأكل الحرام، وينهب أموال حجاج بيت الله الحرام، وكانت العرب يعفون عنه إكرامًا لأخيه زاهر، وكان زاهر قد رزق ولد جميل الصورة يسمى «غانم» ورزق عامر بنتًا فسماها «لبنى» وتربيا حتى بلغا سبع سنين وهما روحان في جسد واحد، وكان زاهر مرض مرضًا شديدًا، وأشرف على الموت، فادعا بأخيه عامر عند موته وقال له: يا أخي قد جاءني الأجل المحتوم، ونعيم الدنيا لا يدوم، وأنت تعلم أنني ما خفت إلا عاقبة هذا الولد، وقد تركت أربعة آلاف ناقة حمراء، وعشرة آلاف رأس من الغنم، ومائة أمة، والكل محمول إليك، فخذ ألف ناقة صداق ابنتك لبنى، وزوجها لولدي وهما يعيشان في الباقي إلى آخر الزمان فإنه مال جزيل.

هذا وعامر يسمع ويقول: نعم، بسم الله.

فلما مات زاهر وضع عامر أخوه يده على جميع ما خلفه زاهر من تلك الجمال، وسار يخادع ولده بالمحال ويوعده بزواج ابنته بالخداع مدة من الزمان إلى أن كبر وتفرس وسار يركب الخيل ويطاعن الفرسان الكبار، فطلب من عمه ابنته «لبنى» فأجابه بالكذب، وأراد أن يدبر له الهلاك، وقال له: يا ولدي حتى تغنم لنا غنيمة من أجل أن تعمل وليمة كبيرة لسائر العربان، وكل ذلك خبث منه ولعنة وضلال.

فقال له غانم: يا عم ما أتعبك في شيء من ذلك، وعليَّ كل ما طلبت.

ثم إنه أراد التخفيف عن قلب عمه، ولم يعلم أنه متكبر وضامر له الغدر والعناد، ويريد أن يزوج ابنته لبعض الملوك الكبار.

فركب غانم وتوكل على العزيز الغفار وسار إلى أرمته المقادري إلى حي بني حرب بن همام، فرأى الأرض مخصبة والرعيان ترعى وخيل وجمال ونياق وشيء كثير من الأنعام، ولم يكن في المرعى أحدًا من الفرسان غير الرعيان؛ لأنها في أمان بفرسانها الأعيان، فقوم السنان، وأحمى الحصان، واستاق منها خمسمائة ناقة وجمل، وترك رعاتها هاربين، وتركهم ما بين قتيل وهزيم.

فقصد الرعاة الحي وأقاموا الصياح فيها، فركبت الفرسان، ولحقته الخيل من كل مكان فهجم على الخيل لما أن قاربته فقتل كماتها، وجندل سراتها، وأخذ الأسلاب، ووصل الوادي بتلك الخيل والنياق، وأراد أن يوصلهم ويعود في طلب باقي الصداق ويجمعه من الآفاق؛ لأنها أراد أن يكون صداقها من عرق جبينه، غير الذي دفعه أبوه من جميع المال.

وكان قد غاب سبعة وعشرون يومًا، فسار إلى أن وصل إلى القوم فوجد أنه قد حدثت بعض الأمور، وسمع حس الطبل والزمر، ونظر دوران كؤوس الخمر، والصياح بالفرح والسرور، وكان السبب في ذلك أن عمه عامر لما غاب ابن أخيه غانم وصفا له الوقت من وصف ما جرى بينهم من العظائم، فسار إلى ملك حضرموت في عشرين فارس من قومه وأبطال عشيرته، وهو في أحسن زي، فحمل إليه ملك حضرموت الف ناقة سود الحدق، ومائة جمل، وأردفه ألف بطل بعد أن زوج عامر ابنته «لبنى» لملك حضرموت وأعطاه الملك هدايا وتحف وكل شيء مستظرف.

فتلقاه عامر بالشكر والفرح والثناء، وعامر يقول لأصحابه هذا يكون لنا عمدة وندخره ليكون لنا على أعدائنا نجدة، وأي نجدة.

فقال له أكابر قومه: هذا هو الصواب والأمر الذي لا يعاب، افعل ما تريد من رأيك السديد إلا رجلاً من قومه يقال له «شاكر» وكان من أصحاب الأمير زاهر، وهو عبد صالح يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فقال له: أيها الأمير! الغدر قبيح بالأجانب، فكيف بالأقارب؟ وكيف ترضى أن يكون هذا الغدر فيك وقد زوجتهامن مدة إحدى عشرة سنة لولد أخيك، وأخذت المهر أمامنا من ماله، ولم ترض تزوجها له، وقد زوجتها لهذا الكلب اللعين، فأين أنت من مالك يوم الدين؟، وهذا رجل بريء من دين الإسلام، ويأكل الحرام، وما رآه أحد يصلي ويزكي زكاة، أما تعلم أن الله لك بالمرصاد، وأنه يجمع الخلق على صعيد واحد يوم المعاد.

فلما سمعت أذناه هذا الكلام قامت عليه القيامة، وأمر بصفع الرجل على أم رأسه، ونتف لحيته وشده، وحلف بالله أنه لا يطعم طعامًا ولا يسقوه شرابًا حتى يموت بالكمد ولا يرحمه زحد.

ووصل السفاك إليهم، وقدم عليهم، وكان الأمير عامر لما خاطبه شاكر بهذا الخطاب وجرى بينهما ما سمعتموه من الأسباب فبعث عبدًا أسود أتى على لسان بعض أصدقاءه بكتاب يذكر فيه أن غانم بن زاهر على بعض الغنم قد غار، وتبعوه، فتركوه قتيلاً على الرمال، فحزنت عليه النساء والرجال، وكان قصده أن تخالفه ابنته فيقتلها ويدع الصداق ويبقى معيرة في الآفاق.

فلما سمعت لبنى الخبر لطمت على وجهها وخرقت أثوابها وعظم مصابها، وأقامت الأيام لا تأكل ولا تشرب حتى دخلت النساء عليها وجعلن يسلينها وهي لا تسمع، فدخل عليها أبوها وهو مجرد سيفه في يده، وعول على قتلها،

فسألتها أمها فيها، وكذلك النساء، فخرج وتركها، فألبسوها الأحمر والأصفر، وأخذ في أمرها سبعة أيام بعدما التقوا السفاك، وأنزلوه وأكرموه وبجلوه، وأقام عندهم وهو منتظر زفافها عليه، ويرحل بها إلى قبيلته.

بينما هم كذلك إذ وصل غانم ومعه تلك الأموال والغنائم، فهو عند باب الوادي إذ لقوه ثلاثة رعيان كانوا لأبيه قديمًا، وصاروا لعمه، فلما رأوه قالوا له: لا إله إلا الله محمد رسول الله، أليس قد جاء خبر بقتل مولانا غانم.

ثم جاؤوا إليه وسلموا عليه وأعلموه بالحال.

فقال : هذا كله من عمل عمي، فخذوا معكم هذه النياق، ولكم فيها عشرة، واحفظوها إلى أن أعود إليكم، ولكن متى يكون الزفاف؟

فقالوا : ليلة غد.

فقال غانم: أنا أدخل الليلة الحي، وأصل إلى ابنة عمي وأخبرها، فإن كانت معي مقيمة على الوداد، فأنا أدبر تدبير آخر يجعل الله فيه الخير والرشاد، وما أتخلى عنها، بل أرمي روحي على الهلاك، وأسقي هذا كؤوس الارتباك.

فقال له الرعاة: أما ابنة عمك وأخبارها، فقد جرى لها من فقدك ما جرى على غيرها من العباد، ولما علمت بهلاكك امتنعت عن الشراب والزاد واكتفت بالحزن والسهاد حتى دخل أبوها عليها والسيف مجذوب في يده، ومنعه بعض أقاربها وأمها.

قال: فلما سمع غانم بتلك القصة ازدادت به الغصة، وأخذ الرعاة معه وصبر إلى الليل ونزل عن جواده وخلع ولبس ثياب الراعي ودخل إلى الحي في

زي صعاليك الصغار من أولاد العرب، ولم يزل يمشي حتى دخل من بين أطناب الخيمة، فوجد «لبنى» وهي مخضبة جالسة على فراش جديد إلا أنها باكية العين، حزينة القلب، وقد ظهر عليها آثار الوله والغرام، والنساء نائمات حولها خوفًا عليها من سطوة أبيها.

فنظر إليها غانم، ورأى وجهها في ضوء الشمع وهو أنور من نورها، ويرى دمعها قد بل ثيابها، وهي تبكي، فلم يجد غانم الصبر فناداها: أبشري يا ابنة العم، فقد جاءك الفرح.

فلما سمعت كلامه وقفت واعتنقا طويلاً وأخبرها بما جرى له إلى حين رجوعه.

فقالت له: مالك طاقة بأبي، ولا بهذا الملعون السفاك، والأصوب أنك تأخذني في هذه الليلة ونهرب، ونقصد إلى بعض أحياء العرب.

فقال لها غانم: ولم ذلك؟ وقد أتيت ببعض مهرك.

فقالت: لا تطيل الخطاب، فلو أتيت بأموال الأرض والذخائر فما أرضيت عامر؛ لأنه ملعون غادر، ولا سيما وقد التصق بهذا الكافر الغادر، ولم تزل به حتى سارت معه إلى الموضع الذي ترك فيه فرسه، ورفعها على السرج، وتقلد بسيفه وقال للراعي الذي كان في صحبته: كن معنا، فإذا جاءا طالب تكن مني مقارب إلى أن نمضي إلى بعض الملوك وأصحاب المواكب.

فبينما هم كذلك وإذا بالعياط والصياح عليه من كل جانب وجاءت إليه رجال مثل السلاهب وفي أيديهم الرماح والقواضب، وفي أوائلهم السفاك زوج

لبنى وهو سابق القوم، ومسك رأس الوادي، وبقي عامر أبوها ورجاله من وراء غانم.

قال: ونظرت لبنى إلى ما حل بهما من البلاء، فنزلت من على الجواد وقالت : يا ابن العم اركب أنت وانج بنفسك، وطيب نفسك، فإن سلمت أنت فما عليك بأس من طرفي، ولا يملكني ويحظى بي أحد سواك، وأنا من الأسواء فداك، ولا أسلم في ذلك إلا أن أقتل نفسي، فهم كذلك وقد أدركتهم الخيل والفرسان، وغانم سار على ظهر الجواد، ونادى برفيع صوته: يا ويلكم أنا غانم، وقد جئت بأموالي والغنائم، وقد غدر بي ونسي حق أبي، أما كان لأبي عليكم حق واجب، فكيف تسلمون ولده إلى هذا الفاجر، الكاذب.

فنادوه: يا غانم! كان لأبيك علينا حقوق، ولكن ما فينا من يقدر على الصدع بالحجر كما فعل عمك، ونحن لا نكون لك ولا عليك، ثم رجعوا إلى الوراء.

ووصل أصحاب السفاك بكل سيف فتاك، وحملوا على غانم، وحمل غانم عليهم، وقد أيقن بالهلاك، وصال فيهم وجال، وقتل سبعة من الرجال الموصوفين في الحرب والقتال، وأصبح الله بالصباح، فوقعت العين على العين، وجاء عامر وهو ينادي: يا ابن الزنا، وتربية الخنا! أردت أن تأخذ ابنتي وتهيم في القفار، وتخليني ألبس العار؟

فقال غانم: إنما العار على من فعل هذه الفعال، وتعدى وجار.

فصاح عامر على الرجال، وقال للسفاك بين الفرسان: ألا أيها الأمير اقتله، ولا تسمع هذيانه.

فقال له: ائتني برأس غانم، فما كان إلا طرفة عين حتى تحدر فارس إليه، وأوقع نفسه عليه، فضربه غانم على عاتقه فأخرج السيف من علائقه.

قال: فخرج إليه أخو القتيل، وكان اسمه عسعس، فقتله.

قال: ولم يزل غانم يقتل كل من برز إيه في الميدان حتى قتل سبعة من الفرسان، فعند ذلك صاح الصفاح بصوت كأنه الرعد القاصف، فخرج الجواد من تحته كأنه البرق الخاطف.

فلما سمع غانم ذلك الصياح حمل عليه.

وكان عمه قد حمل عليه أيضًا وكان العبد نجاح جاء يكشف الخبر كما ذكرنا، فلما رأى تلك الواقعة وسمع كلام الاثنين ورأى السفاك، وعم غانم، وقد حملا عليه فرجع إلى الصحصاح وذكر له كل هذه الحكاية.

فحمل الصحصاح وابتدر إلى الميدان حتى حك السنان بالسنان، وكان غانم قد عجز عن قتالهم، وأشرف على الهلاك، فما صبر السفاك حتى حمل على الصحصاح فتلقاه وتقاتلوا قتالاً يحير العقول، فضربه الصحصاح على هامته فأبراه كما يبري الكاتب القلم، وصاح على القوم، ثم هجم على عامر أبو لبنى، وضربه على رأسه فشقه وأخذت أنفاسه فوقع يخور في دماء، فعندها نادى الصحصاح: هل فيكم من يأخذ بثأر عامر الغدار؟ وهل ترضون بغانم يكون أميركم بهذه الديار؟

فصاحوا جميع العرب: لا رحم الله عامر، لقد كفانا الله شره، وشره هذا الغادر.



قال: وفرحوا بقتله فرحًا شديدًا.

ثم إن الصحصاح سلم غانم الأموال وألبسه حلة الإمارة وأوقف في خدمته الرجال وأقبل إليه أهل حلته من الرجال والشباب أحبابه وأصحابه، ورجع الحق إلى أربابه.

* * *

الصحصاح والأميرة مروة بنت الخليفة!!

ثم ودع القوم وسار كأنه لم يفعل شيئًا فقال له العبد نجاح: والله يا مولاي! لقد أخطأت على روحك يعطيك غانم ثلاثة آلاف ناقة تعف عنها، وأكثر ما كنت تحمل لليلى ألف ناقة في صداقها، والألفين تكون لغناك على طول الزمان، أترى لو سافرت الساعة مشرق الأرض ومغربها ما حصل لك مثل هذه المرة في العطية.

فقال الصحصاح: أتأمرني أن آخذ على فعل الجميل أجرة؟ لا كان ذلك أبدًا.

ثم سار يقطع البيداء والقفار ثلاثة أيام هذا والعبد نجاح قد أيس من الفلاح، وفي رابع يوم أشرفوا على أرض فسيحة، وإذا في شرقها عجاج قد ملأ الوهاد والفجاج، وغبار قد حجب الشمس عن الأبصار، وقتام كأنه حالك الظلام، وصراخ نساء بأصوات شجان، وبكاء غلمان، وقد أذلهم العز رين الزمان، وركض فرسان قد امتلأت بهم الصحصحان، وعبيد وجوار يندبهن على أخذ السادات.

قال: وفي أوائل الجمال هودج كبير عالٍ وعمارية عالية عليها شبكة منظومة من اللؤلؤ لها قدر وقيمة تساوي الآفاق من مصر للشام للعراق.

وفي ذلك الهودج امـــــرأة من النسـاء الأحـرار مسـورة بأسـاور الفـخـار والبهاء مقنعة بقناع الجلال والديانة والحياء من أوصافها وتلوح جلالة القدر والظرف من أطرافها وهي تنادي بصوت رخيم ينبئ عن قدرها العظيم وتنادي للجوار: وليكن اصبرن على القضاء وتلقياه بالقبول والرضا، وارجعن إلى الله تعالى في أموركن، فإن الذي قصدنا بيته لقادر أن يقيم لنا نصر غير قاصر يخلصنا من هؤلاء القوم اللئام الذين قطعوا الطريق على حجاج بيت الله الحرام.

فلما رأى الصحصاح إلى مصارع الأشباح، وهذه الحريم في بكاء ونواح، أخذته الحمية فصاح في عبده نجاح وقال: والله هؤلاء حجاج بيت الله الحرام، وزاروا قبر محمد ﷺ وهؤلا اللئام قطعوا عليهم الطريق، وعوقوهم تعويق، وأظنهم قتلوا كماتهم وأبادوا حماتهم، ولقد سلوت حبي ليلى باصطناع المعروف وإغاثة الملهوف، ولا بد أن ألقي روحي في هذه الكتيبة، وأكشف إن شاء الله هذه المصيبة.

فقال له عبده نجاح: يا مولاي! لا تفعل، واعلم أن ما قصد لأخذه هذه الأموال وحماها إلا رجال وأبطال وصناديد، ولا بد أنهم تسعون فارسًا ما بين مدرع ولابس، ولا يخفى أن يكون واحدًا منهم مثلك والباقي لا يصبرون على فعلك، وقد كان في هذه القافلة ما ينيف عن ستمائة فارس أو دون ذلك فتركوهم هؤلاء ما بين مأسور وهالك، ومطروح تحت السنابك، والصواب يا مولاي لا تعرض نفسك على هذه المهالك، ولا تعارك.

فلما سمع الصحصاح من عبده ذلك الكلام نظر إليه وقال: يا ابن اللئام، ما يقعد عن نصرة الحريم إلا كل لئيم، ثم صاح من أم رأسه: يا أنذال البادية والطائفة الباغية العادية، أقسم بمن جعل البيت الحرام حمى للناس وأمنًا من البأس وأوضح منهجه وأفرض حجه لئن لم تخلوا عن الحريم وما معهم من المال لأجعلن رقابكم بلا عاصم وأجسامكم بلا جماجم وجراحكم ما ينفعها مراهم، وقد نصحتكم نصح الليث الحازم.

ثم صاح بمهرته فخرجت مثل الريح الهبوب، وأوسع في المجال، وقد صاحت عليه الرجال وقالوا لبعضهم: خذوه على رؤوس الأسنة الطوال، فحمل عليه عشرة من أراذلهم لا من أبطالهم فما لاصقهم حتى فرقهم، ولم يعلم أحد من الحاضرين إلا قد عليم عليهم برأس السنان، وانتقل عن المجال وهجم عليهم وضرب فيهم، وإذا بهم تساقطوا من ظهور الخيل على الرمال.

فقال رجل من القوم: لا تزدروا بالعرب، واعلموا أن هذا الفارس ما حدثته نفسه إلى لقائكم إلا وهو كفء لكم ولا يخشاكم فاحملوا عليه فما هذا وقت التأني عن هذا البطل النحرير، ومعكم أموال الملوك وصعاليك الحجاز كثير، فتكثر عليكم العرب ويصير هذا المال منتهب ولا تنولون غايتكم.

فحمل على الصحصاح منهم أربعين فارس كأنهم الليوث العوابس، فصاح: يا أنذال العرب ستعلمون من يذوق كأس المنون، وطال بينهم الحرب والطعن

والضرب وضابت الصدور، وعظمت الأمور.

فلما نظروا إلى الصحصاح علموا أنه فارس البطاح وعظم في أعينهم فرفعوا إليه أصوتهم بالدعاء وقالوا: يا فارس الإسلام وحامي زوار البيت الحرام، ويا مانع عن الحريم كل لئيم، وقاك الله نار الحجيم.

فتبسم الصحصاح ونادى لعبده نجاح: ويحك حل عقال هؤلاء المربوطين، فتبار نجاح وحل الأسارى هذا والستين قد بقي منهم عشرة حيارى من فعل الصحصاح وما منهم إلا من هم بالخروج إليه في أول مرة.

وقالوا له: يا وجه العرب! هذا المال يكون بيننا وبينك بالسوية، واترك عنك هذه الحمية، ولو كنا قلنا في بداية الحال ما كان تعرض لنا في قتال.

وكان الصحصاح لما قتل الرجال أمر برفع العماريات التي وقعت في الحال ورد النساء إلى المحامل، ومال إلى الهودج الكبير الذي ظهرت منه جارية يقصر عن وصفها الصفات، ويعجز عن نتها النعات.

فلما رأته قالت: يا غلام! لقد أحسنت فعلاً وأكرمت أصلاً، ولقد أرضيت ربًا كان بفعلهم غضبان، وحميت حجاج بيت الله الحرام، فأبسر بالملك العميم والمال الجسيم.

فلما سمع الصحصاح ذلك بكى بكاء شديدًا وقال: والله ما فعلت هذا السبب لكرامة فضة ولا ذهب، بل رغبة في ثواب الله وخلاصكم نعم المكسب.

ثم قدم عليه عبد أسود ووصل إليه وحياه بتحية الملوك وخاصبة مخاطبة الشجعان وقال له: إني رسول إليك أقص ما حملته عليك وما على الرسول عتب فيما يقول أفتأذن لي يا مولاي أن أقول، ولي الأمان؟

فقال الصحصاح: قل وأنت آمن.

فقـــال: أنـــا رسول من عند هؤلاء الأمراء الذين هم قدامك وهم فرسان العرب وأبطال الحجـــاز والمقدمين على جميع الذين نصرك الله عليهم وأوصلك إليهم، وما تأخر هـــؤلاء العشرة إلا وكل واحد يريد لرأسه ألف فارس، وقد أعجبهم طعانك وصـــولتك عـــلى أقرانك غير أنهم رحموا شبابك وهم يقولون: قد وهبناك دم القتلى وخيولهم وأسلابهم، ثم يسألونك عن هذه الغنيمة بشيء له قدر وقيمة وأكبر الغنائم سلامة نفسك وعودتك سالمًا إلى محلك، ولا تلقي بيدك إلى التهلكة وتوقع شبابك في الهلكة، ولو لم يكن فيهم إلا الغضبان والغيداق الذي يضرب بهم الأمثال في سائر الأفاق..

فلـــما سمع الصحصاح ذلك ضحك حتى استلقى على سرجه ونادى: ويلك إن كنت ما تعرفني أنـــا أعرفـــك بنفسي أنا الصحصاح بن جندبة بن الحارث الكلابي قاتـــل الفطريف بن مالك فارس بني طيء وقاهر بني كندة، وخلصت عطافًا من كـــل شـــدة، أنا قاتل الأسد على الغدير، أنا قاتل السفاك اللعين، ارجع إليهم وقـــل لهم إني ما أقاسم على وفد الله، ولا آخذ حجاج بيت الله فإن طلبوا البراز يبارزوني، وإن شاؤوا الحملة يحملوا عليَّ بأجمعهم، فعندي الكثير والقليل سواء إذا جالت الخيل في البيداء، وأما

قولهم يعطوني من الغنيمة فهي بيدي، وقد صارت لي غير أني تركتها لله عز وجل.

فرجع العبد إلى أصحابه وأعاد عليهم ما سمع، فلما سمعوا ذلك انحدروا من التل كأنهم العقبان إذا انقضت على الغزلان وسبق إيه الغضبان كأنه شيطان على حصان كأنه ثعبان يطير من تحته طيران كأنه البرق الزائد اللمعان له من الريح يدان ومن الظباء رجلان.

ثم تطاعنا طعنًا أحـــر من الجمر، وأمـر من الصبر واختلفت بينهما طعنتين كان السابق بالأولى الصحصاح فوقعت في صدر الغضبان خرج من ظهره ذلك السنان، فعند ذلك تصارخت الرجال وزمجرت الأبطال ونادوا: يا ويلك ما هذه ا لفعال، والله ما نحن إلا جهال، فإن العار قتلكم واحد بعد واحد.

فلما رأوا ذلك صوابًا أرادوا أن يحملوا عليه وإذا بفارس يقال له «الصهال» قد برز على جواد ديال يسبق رياح الجنوب والشمال، وبين عينيه غرة كالهلال، وفي يده صارم منصال للأبطال قتال، فلما تقارب إليه في الوصول، وحمل كل واحد منهما على صاحبه، وطلع عليهم الغبار حتى خفيا عن الأنظار، ولم يمهله الصحصاح دون أن صاح عليه وضربه بالسيف على عاتقه فخرج السيف يلمع بين علائقه.

فلما رآته صاحبة الهودج نادته : لا شلت يداك، وخـــاب فيك رجاء أعدائك.

ثم حمل عليه من ا لثمانية واحد يقال له أبو النوائب فجالا واستطالا واختلف بينهما طعنتين كان السابق يالطعنة الصحصاح فأخذها ترهب في الطارقة فمرت خائبة فاغتاظ الصحصاح من ذلك، وترهب قد أخذ في الحملة، وصوب إليه بطعنة في الجملة، فزاغ عنها واعتدل ثم أدخل الصحصاح يده في جلابيب درعه أخذه من بحر سرجه، وقاده ذليلاً حقيرًا، فأخذه نجاح ودار كتافه.

فلما نظروا إلى ذلك فقال لهم رجل: إني أشير عليكم وتقبلوا مني.

فقالوا: نعم.

فقال: خلوا هذا الرجل واذهبوا، وإن قدرتم على الهرب فاهربوا، وإلا تصيرون مثلاً للأبعد والأقرب...

ثم إن الصحصاح أطلق المأمورين، وقال لهم: اركبوا الخيل التي أخذتها من الأعداء فهي لكم، وأنتم أولى بها مني في هذه الطريق الصعبة المسالك، ولو غضب عبدي نجاح وصار هالكًا.

ثم ودع صاحبة الهودج وأراد أن يرجع فصاحت عليه، وأخذها البكاء وكذلك جواريها، والتفتت إليه كأنها الكوكب الوضاح، غير أن الأعين تذرف بالدموع، فتعلقت بركاب الصحصاح وقالت له: يا سيد العرب وكاشف الكرب وكريم إذا جاد و حامي الديار، ومن العدو إذا لها طلب، فلماذا ما تكون معنا وتنظر كرامتنا لتشملك عنايتنا، فاصبر حتى أقول لك من أنا، وتبلغ آمال المنى.

فقال لها الصحصاح: هيهات أيتها المصونة لا كان ذلك أبدًا، ولا نأخذ على اصطناع المعروف جزاء.

ثم مضى الصحصاح فقالت صاحبة الهودج: لا تفعل أيها الأمير، فقد سبق على لسانك أنك ذممت لنا، ونحن أضعف خلق الله ههنا، ومعنا هذه الأموال والأثقال، وكل إنسان من الفرسان أتانا، ونظر فيمطع فينا ونكون نهبًا لعرب الحجاز، ولا يتفق لنا في كل يوم مثلك، فأوصلنا إلى أمننا وإلا نحن هالكين لا محالة، وإن كنت لا تعرفني أعرفك حسبي ونسبي، أنا «مروة بنت أمير المؤمنين» وإمام المسلمين عبد الملك بن مروان، فسر معنا وأوصلنا إلى أرض نسرين، وإلا نحن في قبضة الهوى والهلاك، وجعلت مروة تتعلق به.

فنظر إلى حرمتها وجريان دموعها على وجنتها فرق قلبه عليها وثبت عنده إجلالها لأنه لا يعرف من هي ولا من أبوها؛ لأنه خرج من أرضه وهو صبي وهو ما يعرف خاص ولا عام، فأجابها إلى ذلك...

وسار الصحصاح مع مروة يخدمها ومن خوفها لا يتركها، فقالت له: يا سيد العرب! أريدك لا تزال قدام محملي حتى يكمل إحسانك وأمانتك عليَّ.

فقال لها: سمعًا وطاعة والله لا كنت إلا قائدًا بزمام البعير لأني إليك عبد رغفير، فلا خوف عليك ولا فزع.

فقالت له: جزاك الله عنا أحسن الجزاء.

وسار الصحصاح وزمام الناقة بيده وهو على مزنة كأنه غصن بان، فوالله لقد سار أيامًا وهو ما نظر إلى الهودج مرة واحدة لكرامة نفسه وشرافة فعله

وكثرة مروءته، فلله دره، ومع ذلك فلسان الأميرة مروة لا يفتر عن التسبيح والدعاء إلى الصحصاح.

ووصلت كتب مروان بن الهيثم إلى مدينة دمشق وما فعل في بني مخزية، وما أوقع بهم من البلية، هذا وإن مروة لم يطلع لها خبر ولا وقف لها على أثر.

فلما سمع عبد الملك صعب عليه وكبر لديه، وامتنع عن الطعام والشراب، وقال لأولاده: لقد ذلت أختكم بعد عزها، وانفردت عن الأهل، وأضحت غريبة مأسورة تخضع للأعداء وتطلب الإجارة من الغرباء، وهي صوامة قوامة ولا يقر لنا قرار بعدها حتى نكشف العار، جردوا العساكر، وكاتبوا إلى العرب والعشائر، وكل النواحي والجوانب لتقدم إلينا فكل ساعة علينا بسنة لفقد السيدة مروة، فيا لها من مصيبة ما أعظمها ونوبة ما أصعبها.

وما ورد على أحد مثل أخوها «مسلمة» لأنها كانت تليه في العمر، وهي أعز الناس عنده، فعزم على المسير وحده بنفسه في طلبها، وقال: لا بد لي منها، ولو وصلوا بها إلى أقصى السند.

ولم يزل الصحصاح سائرًا بمروة حتى بقي بينه وبين الشام ستة أيام، وبانت له بلاد الشام، فأقبل على السيدة مروة وأخذ إذنها في الانصراف.

فقالت له: لا والله لا يكون ذلك يا وجه العرب؛ لأنك أكلت طعامنا ولا يجوز لك الانصراف إلا بإذننا، وكيف نتركك تمضي ولا تدخل معنا إلى أمير المؤمنين؟ ويكون دخولك إلى دمشق في يوم مشهود وتتعلم أيضًا آداب الحاضرة

وعلومها الفاخرة، وإني أريد الجزاء الجزيل والعمر الطويل.

فلما سمع الصحصاح من مروة ذلك الكلام علم أنه الصواب، ويشع له بذاك الذكر بين العرب والأنجاب، فقال لها: نعم أيتها السيدة المصونة ها أنا أسير معك إلى أبيك وأنا من الأسواء أفديك..

ثم إن الأميرة مروة أقبلت عليه وقالت: يا صحصاح لا بد أرسل إليَّ عند أبي بشير ما أنعم الله علينا من السلامة به، فإن الأخبار قد وصلت إليه بهذه الكائنة، ولا بد من سير النجابين إلى سائر الآفاق تطلب أهل الشقاوة والنفاق، وأنا أعل أنه لا يبقي على أحد منهم و يأخذهم بالسيف البتار، وهو لا يعلم أن الله عجل لهم البوار، وأخذهم ولا ترك منهم ديار، والثاني تخرج إخوتي إلى لقائي ويمشون في خدمتك لأنك صنت حريمهم وأنا أعلم أن دمشق تزين لأجل دخولنا وينثرون عليك النثار من الفضة والذهب وتصل إلى أهلك بكل خير ويصل إليك من المال والأنعام شيئًا كثيرًا .

فقال الصحصاح: افعلي ما بدا لك فإني لا أخالف لك أمرًا

وإن الأميرة مروة أرسلت إلى دمشق البشير بغير كتاب لأنهم شاهدوا الحال والوقائع وما زالوا يقطعون المراحل والمنازل حتى وصلوا إلى دمشق ودخلوا من الباب.

فلما رأوهم الناس عرفوهم فارتفعت الأصوات وعلت الضجات وغلقت الأسواق وأقبلت الناس يهرعون من سائر الآفاق.

ودخلوا بهم على عبد الملك بن مروان، فقبلوا الأرض بين يديه، وأعادوا القصة من أولها إلى آخرها عليه وهو يبكي فرحًا بهم، وقد حار مما سمع واستعظم من الصحصاح ما فعل، وأقبل على أولاده وقد غلب الشوق فؤاده، وقال: والله ما جرى قط في السير المتقدمة مثل هذه أبدًا، ولقد صنع معنا هذا الرجل شيئًا لا نقدر على مكافأته ولا مجازاته لأنه رعى حريمنا وسترهم، ورفع العار وأزال الشنار.

فبينما الصحصاح سائر وإذا بغبار قد ثار حتى سد الأقطار، فقال الدليل: ارى غبارًا قد ثار من بين أيدينا وأنا أقول إنها غبار وحش لأن البلدة بعيدة منا.

فقال الصحصاح: يا شيخ لو كان غبار وحش كان متفرقًا، وما هو إلا غبار الخيل.

فقالت الأميرة مروة: صدقت يا فارس العرب، وهو كما ذكرت، ولا شك أنه عسكر قد وصل مع إخوتي وأهل وعشيرتي، وقد خرجوا إلى خدمتك لما وصلتهم أخبارك ومكرمتك، فأبشر بالصعد الظاهر، والشرف الباهر، والعطاء الوافر.

فقال الصحصاح: يا مولاتي الحمد لله بالسلامة على لم الشمل بالأهل والوطن والنجاة من المحن.

ولما وصلوا إلى باب المملكة حتى ضربت القوات وارتفعت الضجات، وخرج عبد الملك بن مروان وكان من حين سمع بسبي مروة ما ركب إلا في تلك

الساعة، وقال: والله ما خرجت إلا للقاء الصحصاح وقبض مسلمة على عضده وأشار إلى ركاب الخليفة، وكبس على يده، فعلم ما يراد به، فقبل الصحصاح قدم الخليفة في الركاب، فطأطأ عبد الملك وقبل رأسه، وأشار إلى مسلمة أن يقدم له فرسه فقدمت له مزنة، ولزم مسلمة له الركاب وعضده حتى ركب، وجعله إلى جانبه الأيمن، وأحدقت به المواكب من كل جانب، والخليفة يحادثه ويباسطه في الكلام.

ثم قال حمزة لأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان: لقد حزت الأنعام، وأعطيتني ما لم يخطر مثله في الأوهام وقد بقي للعبد حاجة واحدة، وهي تمام المجد وبلوغ الأرب.

فقال عبد الملك: وما هي حاجتك يا ملك العرب وسيد أهل الرتب؟

فقال : يا أمير المؤمنين إن العبد ربي يتيمًا في أرض ماء النظيم يلبس الخام ويعيش مثل الأيتام، وقد وصل إليَّ من أمير المؤمنين ما وصل من الأنعام ولا خبرة لي بتمهيد الإمارة ولا سيما الحجاز يختلف والعرب لا يفكرون في العواقب، ويتحدثون على المناصب والعزل هو الإطلاق للرجال، وابن الهيثم ينقاد له مائة ألف عنان، وربما يحمله العزل على العصيان ولا يفكر في العاقبة إذا عصي وقد كان المملوك يشتهي أن ينعم علي أمير المؤمنين مسلمة يدخل معي الحجاز ويمهد لي البلاد وتطعيني العباد، فإذا اشتد أزري واستتم أمري وجاءت العرب إلى خدمتي وتحت طاعتي فيرجع الأمير مسلمة مؤيدًا منصورًا وأكون بهيبته منصورًا .

فلما سمع الملك كلامه أطرق برأسه إلى الأرض ساعة وقال: يا ملك العرب إليك ما طلبت لأنك قد حليت عندنا موضع الروح، ثم أقبل الخليفة على مسلمة وقال له: إن الحاجة داعية إليك في رأيك السعيد، وفعلك الحميد، والصواب أن تسير مع أخيك الصحصاح لتنقاد إليه رقاب العرب والعجم والترك والديلم، فتأهب للمسير وخذ معك جيشًا كبيرًا والتقى الناس بالرعب والهيبة وشد لأخيك الصحصاح قواعد المرتبة.

فقال الأمير مسلمة: سمعًا وطاعة.

ثم قال أمير المؤمنين: إن الله تعالى قد أسعد هذا الغلام وخصه بالأدب والاحتشام فسر معه يا ولدي على عجل وتوكل على الواحد الأحد، الفرد الصمد.

* * *

ليلى تضحي بنفسها فداء لقومها!

فهذا ما كان من ديار بني كلاب وحلة بني عامر والأمير عطاف وابنته ليلى فإنهم كان عندهم حادث عظيم، نذكره بعد الصلاة على سيدنا محمد الحبيب، وذلك أن الصحصاح لما سار من عندهم وطالت غيبته وبعدت سفرته وانقطعت أخباره وظنوا أنه قد مار وشرب شرب القوات في بعض الغارات، فبكوا عليه وتأسفوا على انقطاع خبره، وبكى عطاف وأهل الحلة.

وأما ليلى فإنها كادت أن تهلك نفسها حزنًا عليه، وصامت عن الطعام وتركت الشراب وهجرت المنام وبكت المحبين على شبابه وكيف صدعه الزمان وأخذه من بيت أهله وأحبابه والأوطان، وقد وصل خبره إلى أمه فأيقنت أنه صح هلاكه، فحزنت عليه حزنًا شديدًا، وصارت مثل الحبة على المقلاة.

فأتوا أهل الحي إليها وقالوا لها: اعلمي أن هذا البكاء يؤدي إلى الهلاك وسوء الارتباك، ارفقي على مهجتك فتقول لهم: وهل أريد بعد الصحصاح حياة أو قرارًا!!

إلا أنها لما طال عليها البكاء والنواح في المساء والصباح ونهوها أهل الحي عن ذلك فضربت لها بيت في أطراف البيوت، وخرجت من بينهم وصارت تبكي ليلاً نهارًا، وإذا كان وقت الليل لا تنام وإذا أتى النهار تمضي إلى قبر أبيه

جندبة وتناديه يا سيدي هل التقت روحك بروح الصحصاح لأني قد كرهت الحياة فمتى يكون الوفاة؟

وأما ليلى فإنها ما رقدت بعده ليلة ونحلت من كثرة البكاء إلى أن خفيت عن عيون الناظرين، وإذا زاد بها الغرام فتأتي إلى أم الصحصاح فتبكيان وتندبان كما جرت عادة النساء.

فبينما بني كلاب في حللها وهي مطمئنة وإذا بغبار قد ثار حتى سد الأقطار، وعاد النهار كأنه ليل في الاعتكار، وبعد ساعة ظهرت من تحته نواصي الخيل كأنها قطع الليل، فصاحوا عند ذلك جميع أهل الحلة: الخيل يا أرباب الخيل، فأقبلت من كل جانب، وهاج الحي بساكنيه وارتج بقاطنيه وركبت الرجال على خيولها، وتجردت بنصولها، وتذكروا في ذلك الوقت وقفات الصحصاح، وتمنوا لو كان حاضرًا كان يسد عنهم هذا الباب، ولو أن يفدوه بأرواحهم وتندموا عليه، وساروا طالبين إلى تلك الخيول الغائرة وقلوبهم من الحرب غير نافرة، وهم لا يعلمون من هم من العربان.

وكان السبب في ذلك أن فارسًا يقال له «حريث بن الحجاج» الذي قدمنا ذكره كان في قلبه النار مما فعل الصحصاح عندما خلص عمه بالحيلة، وكيف كسر بني كندة كلهم بالشجاعة والقوة والبراعة، وقد فتك بالرجال وقتل الأبطال، وعاد بعبده سالم من الأنكاد، فبقي حريث حيران ، ولم يزل على ذلك الحال مدة أيام وليالٍ إلى أن غاب الصحصاح وشاعت الأخبار بفقده، وإن بني كلاب قد لازمت عليه البكاء، فجمع حريث قومه وأهل قبيلته، وقال لهم: أنتم تعلمون ما صنعت معي بنو كلاب لأنني تربيت يتيمًا، ولما أن كبرت وصرت في

طبعة الشجعان سرت إلى عطاف وأخذته، وأردت قلته لأجل ما آخذ منه بثأري؛ فأتى إلينا الصحصاح خلفه إلى حلتنا وقاتل في أبطالنا وفرساننا وأباد ساداتنا وتركنا حديثًا بين قبائل العرب، فماذا أنتم قائلون؟

فقال له بعض فرسان عشيرته: والله لقد أجبت في المقال وأصبت في الفعال، وما لنا إلا نرحل إلى قبيلته وننهب ونقتل عشيرته، ونأخذ بثأرنا ونمحي عنا عارنا.

فقالوا له المشايخ وأرباب المشورة: يا أمير حريث! ما هذا صواب لأن فرسان بني كلاب أبطال في الحرب، وقد نشأ فيها هذا الفارس الذي قد ساد وفاق أبطال العرب من ذوي المفاخر والرتب، وإنه اليوم في طبقة ابن شداد عنتر وعقبة بن شهاب اليربوعي، ولا نأمن منه أن يرجع يلتقط أبطالنا، ويعود علينا ذلك وبال ومن لم ينظر في العواقب فما له في الدهر صاحب.

فقال لهم الأمير حريث: اصبر، ولعل الله أن يحدث من بعد لك أمرًا من الأمور.

ثم إنه صبر على مضض منه لأجل أنه ما وصل إلى بلوغ الغرض إلى أن غاب الصحصاح عن حلته، وطالت غيبته، وفقدوه أهله وعشيرته، فوصل الخبر إلى بني كندة ففرح حريث بذلك وقال: ما أبركه من صباح بهلاك الصحصاح، والآن إن حي بني عامر من بعده بقي مباحًا في الغدو والرواح، وننهب الأموال والسلاح.

ولم يزال بنو كندة سائرين إلى بني كلاب إلى أن وصلوا حي بني كلاب، ولما

أن ظهر الغبار وبان لأعين النظار، خرجوا إليهم الكبار والصغار هنالك في ذلك الوقت عرف عطاف قدر الصحصاح، فبكى عليه وناح.

ولما نظر بنو كندة وقد ساقت النوق والجمال تقدم إليهم، و نادى: يا بني الأنذال، والله لقد خابت منكم الآمال، وحامت عليكم طيور الآجال.

ثم إنه حمل عليهم في عاجل الحال، وحملت معه الأبطال وجروا في أيديهم البيض الصقال، هنالك جرى الدم وسال وثبت الرجال الكرام، وبكى عطاف وناح، وتذكر أيام الصحصاح.

ثم حمل على حريث وحمل حريث عليه، وتطاعنا في الميدان ساعة من الزمان، وطعن حريث عطافًا بعقب الرمح في صدره، فوقع عن مركبه على ظهره.

وقد نظر بنو كلاب إلى أميرهم وهو ملقى على الأرض وقد امتلأت الفلاة بالقتلى فولوا الأدبار، وركنوا إلى الفرار، وقد سبيت نساءهم وأخذت أموالهم، وساءت أحوالهم.

وقد خرجت ليلى من خدرها وكشفت البرقع عن وجهها، ونادت بلسان حزنها، فالتفت حريث إلى ليلى فنظرها وهي تلتفت لفتات الغزلان، وتميل كأنها غصن البان، فقال لها: يا ذات الجمال على من هذا الندب والعويل، أخبريني.

فقالت له: يا كلب العرب! وأخس من ضرب في البيداء، لقد فعلتم فعل ما سبقكم إليه أحد من الرجال، وقد نهبتم الأموال وقتلتم الرجال، لو كان

الصحصاح حاضرًا لجعلكم ما بين فتيل وناكس، ولم يقدر أن ينافسه منكم منافس.

فلما سمع حريث ذلك زاد لها وجدًا وعشقًا وهيامًا، ونادى لقومه: يا آل كندة! فأجابوه بالتلبية وقالوا: لبيك يا فرس الأعراب ماذا تريد؟

فقال لهم: يا ويلكم يا بني عمي ارفعوا السيف عن بني كلاب، فقد أعطيتهم الأمان، فرفعوا السيوف عنهم من بعد ما كانوا أشرفوا على الهلاك، وقد نادى المنادي بالأمان؛ فرجع بنو كلاب وقد تعجبوا من تلك الأحوال وعادوا إلى الأحياء من بعدما كانوا قد تعلقوا بالجبال والتلال خوفًا من الوبال،

ثم أمر حريث بإحضار الأسارى، وكانوا ألف وثمانمائة رجل، وكان في جملتهم عطاف قاتل أبيه، وقد أيقن أنه ما يبقيه، ولا يقبل من أحد شفاعة فيه.

فلما حضر الجميع بين يديه قال حريث: اعلموا يا بني عمي بني كلاب، أنكم قد أسلفتم لنا أمثالها، وقد قتلتم من بني كندة أبطالها، وأخذتم أموالها، وهذا عطاف قد قتل أبي وقد ربيت أنا يتيمًا منذ كنت صبيًا، إلى أن كبرت وتقدمت على قومي، وأنا أقسم بمن لا تراه العيون أنه ما كان لي نية أن أبقي منكم صغيرًا ولا كبيرًا، وها أنا قد عفوت عنكم، ومننت عليكم بنفوسكم وأموالكم بحيث لا يعدم لكم منها عقال، وذلك بشرط يكون لي عليكم وهو أن تزوجوني ابنة عطاف لأنها صاحبة جبين صبيح ومنطق فصيح يدل على عقل رجيح.

فلما سمع بنو كلاب من حريث ذلك الكلام أيقنوا بالفرح وزوال الهم والغم.

وقد أقبل حريث على عطاف وقال له: أيها الأمير! إن من زرع حص من جنس زرعه، وأنت قتلت أبي، وأنت سبب ما حل بي من اليتم، فزوجني ابنتك ليلى، وقد نويت أن حكمها في ملكي، وأسلم إليها نعمتي.

قال عطاف: هي لك أيها الأمير!، وأنا من جملة الخدمة، فافعل بنا ما أنت أهله.

فلما سمع الأمير حريث من عطاف ذلك الكلام فرح وعلم أنه قد بلغ المرام.

وقد سمعت ليلى ذلك الكلام فصعب عليها وكبر لديها، وقد ضربت الدفوف والمزاهر، فسألت ليلى عن ذلك فقيل لها: إن أباك قد زوجك بالأمير حريث.

فقالت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم أخذت في البكاء، ومزقت ثيابها.

فسمعها أبوها وهي تبكي، فأتى وبكى بين يديها، وقال لها: قد علمت يا ابنتي أني كنت مشرف على الهلاك، وكذلك أهل قومك وعشيرتك، وما خلصنا الله تعالى إلا بسببك، والصحصاح قد قتل أو وقع في الأسر فهلك، ومثل هذا الزوج ما يصلح إلا لك.

فقالت ليلى: يا أبي أما اتفاق الأزواج فكثير، ولكن كلهم يدفعون غريمًا، وأما أقول: إن العرب ساروا يخلصون أنفسهم بالبنات العذارى وأنا حزني على

حامية بني كلاب مقيم وقلبي من رعايته جحيم، وقد فوضت أمري إلى السميع العليم.

فلما سمع عطاف من ابنته ذلك الكلام قال لها: والله يا ابنتي إني متأسف على الصحصاح، فاصبير على حكم الإله الذي يدير الزمان ويعلم ما هو كائن في الأكوان.

فلما سمعت ليلى ذلك بكت وتحسرت.

فخرج أبوها من عندها وقد علم أن عتابها يزيد غمها وهمها، وبعد ثلاثة أيام أتى إليه حريث ونزل على أبياته، وقال له: أيها الأمير! قد عولت على المسير إلى دياري لأني لم أقدر أزف ليلى ههنا، وأريد أن تصلح أمرها في يومنا هذا وأرحل بها في غداة غد إلى أهلي، وأزفها عند والدتي.

فقال عطاف: سمعًا وطاعة، ثم إنه أمر بإصلاح أمرها، وأخرج جهازها.

وقد ألبسوا ليلى الثياب الفاخرة وهي تبكي وتندب على الصحصاح.

فقال حريث لعطاف: أيها الأمير! أريدك بعد سبعة أيام أن تقدم عليَّ في سادات قومك لتشهد كرامتي في حلتي، وأحمل إليك ما يحمل لمثلك لتعلم العرب أني قد حملت لابنتك صداق وافر، ومهر غالٍ.

فقال عطاف: حبًا وكرامة، وأنا عبدك وهي أمتك.

ثم إنهم خرجوا من الحي وليلى تصيح وقد صارت تبكي.

فلما أن كان من الغد عند الصباح رحل حريث وليلى معه ونظر إلى أم

الصحصاح إلى رحيل ليلى مع حريث فحنت وأنت وقد حثت التراب على رأسها وصرخت من وراء هودج ليلى.

فكان حريث في ذلك الوقت واقفًا يسمع أم الصحصاح، فصعب عليه، وسأل عنها، فقيل: هذه أم الصحصاح وقد صح عندها هلاكه، وصعب عليها أيضًا زفاف زوجته على غيره.

فقال : والله إنها معذورة، ثم إنها سار وقد نال المراد.

* * *

خطة الأمير لإنقاذ الأميرة

وأما ما كان من حديث الصحصاح فإنه لما رحل من دمشق كما ذكرنا فسار يجد المسير إلى أن قطع خمسة عشر يومًا وفي اليوم السادس عشر أقبل على الأمير مسلمة وقال له: يا مولاي! اعلم أن نار الشوق قد اشتعلت بقلبي والمحبة قد زادت، وعظمت أشجاني، وقد عولت أن أمضي أنا وعبدي نجاح وأتنسم الأخبار، وأسأل بني كلاب، لأن قلبي قلق، وأخاف أن يكون قد حدث شيء.

فقال مسلمة: يا ملك العرب! معلوم أنني ما أريد إلا ما تريد، ولكن قال الله عز وجل لنبيه ﷺ ﴿وشاورهم في الأمر﴾ وقد بقي بينك وبين قومك قدر ما سرت من دمشق أو أقل من ذلك، ولا آمن عليك من غوائل الدهر وأنا أشتهي ذهابك إلى أرضك بالهيبة والتعظيم ليكون ذلك أعظم لك في العز والهيبة. فدع العجلة.

فعلم الصحصاح أن في رأيه الصلاح فقال له: لا عدمتك مشيرًا ثم إنه صبر مع قوة شوقه وكربه حتى بقي بينه وبين قومه ثمانية أيام، فزاد به الغرام وهجر الطعام، فأقبل على مسلمة وقد تغيرت أحواله وزاد بلباله، وقد اقسم بمن مرج البحرين أنه قد حدث حادث في قومه، ولا بد من المسير في هذا اليوم وأن أدخل ليلاً وأسأل عن أخبار ليلى، وأبصر البازين اللذين عند أمي،

إن كانوا سالمين فهم غرض أمير المؤمنين، وأعرف صديقي من عدوي، وأسال والدتي عما جرى من بعدي.

فلما سمع مسلمة كلام الصحصاح ورآه قد أظهر الهوى وأباح خشي إن رده لا يكون الرد محمودًا ويفوته الغرض المقصود، فقال له: اعلم أنني ما منعتك إلا من الإشفاق عليك والساعة فافعل ما تريد، وأنا سائر خلفك أجد الرحيل، وما تفوتني إلا بالقليل، والله تعالى هو راعيك وناصرك.

فودعه وقبله بين عينيه وسار ومعه عبده نجاح وساروا مجدين حتى أشرفوا على ماء العديب في الوقت الذي نزلت فيه بنو كندة هذا الاتفاق حلو المذاق.

فنظر الصحصاح إلى هذا العسكر فرآه كأنه البحر والهودج يلوح كأنه قبة ذهب أحمر، فحن الصحصاح وصبا إلى رملة عالج، ثم قال: يا نجاح هذه الخيل وهذه العدة تدل على أن هذا العسكر من بني كندة؛ لأن العرب لها علامات تعرف بها، فتقرب بنا لنسأل عن حالهم، ونعلم من أي العرب هم؟..

فقال له نجاح: يا مولاي! إن في قلوب بني كندة النار منك، وقد صنعت فيهم الصنيع الذي لا يخفى، وهم في هذا الجمع الكثير، وإن أنكروك وقد عرفوك تكون قد فرطت في نفسك.

فقال: لا بد لي من ذلك وبالله المستعان وعليه التكلان.

ثم إنه اختلط بالقوم وقصد مضربًا عاليًا بعيدًا عن المضرب، وعلم صاحب المضرب أنه غريب يريد الطعام فقال لعبده: انظر من نظر بنا، فخرج العبد ورجع وقال: يا مولاي! فارسين غرباء طمعا في الضيافة قد نزلا.

فقال: على الرحب والسعة.

ثم إنه أمره فصنع جفنة من اللحم والثريد، وخرج بها إليهما، فلما وضعها بين أيديهما قال له الصحصاح: اجلس يا عبد الخير وكل معنا حتى يطيب عيشكم على قلوبنا، وكان قصده بجلوس العبد حتى يخبره بالأخبار.

فجلس العبد وجعل يأكل هو ونجاح ويقول للصحصاح: ما بالك لا تأكل يا وجه العرب!.

فقال له: إني على كفاية ولي سبب يمنعني عن أكل الطعام، ولكن هذا رفيقي جائع، فكل معه وتنوب عني بارك الله فيك.

فأكلا العبدي. والصحصاح يستخبره بالحديث، والعبد يخبره عن الحال، وأعاد عليه غارة القوم على بني كلاب، وكيف تزوج حريث بليلى بنت عطاف!!

فكادت روح الصحصاح أن تخرج من بين جنبيه، وهان الملك عليه، ثم إنه ثبت نفسه وقال: وأين ليلى؟

قال: يا مولاي! ها هي في هذا الهودج الوهاج الذي في وسط المضارب والخيام؛ لأن حريثًا ما دخل بها لأنه يريد أن يدخل بها في وطنه وعند أمه بعمل زفافها، والأمير عطاف سوف يصل إلينا في خلال أيام قليلة.

قال: وهو يكلمه وما يصدق أن يقوم من عنده حتى يدبر فيما يعمل.

فلما هم بالقيام سمع من المضارب أنينًا يخرج من كبد حزين.

فلما سمع ذلك تفكر وبقي عجيبًا متحيرًا، فقال للعبد: ويحك يا مبارك! من

هو هذا المنادي؟ ومن هو الصحصاح.

فقال: يا مولاي هو الصحصاح بن عم ليلى! وكان عمه عطاف قد قطع عليه مهرًا ثقيلاً فقال له: ومن هو عمه؟

فقال: يا مولاي عطاف بن رافع سيد بني كلاب، وإن الصحصاح مضى ليأتي بالمهر فأعاقه العناء وقتلته الأعداء، وأما هذا الذي يندبه فهو ابن خالة حريث واسمه غانم بن زاهر، وقد وقع ما وقع بينهما من أجلى ليلى لأنه قال لحريث: ما يجوز لك هذا النكاح، ولا تأمن غائلة الصحصاح، وأشار عليه فردها، فلم يقبل منه.

ثم أخذ العبد الجفنة، ودخل إلى الخباء فأقبل الصحصاح على عبده نجاح وفي قلبه ألم وجراح، وقال: والله العظيم إن روحي تحدثني أن أرميها في هذا العسكر، وأشفي قلبي بسيفي الأبتر، ولكني أخاف من لوم مسلمة على ذلك.

فقال له العبد: يا مولاي ليس هذا صوابًا، وربما أرى أنك لا تظفر بمرادك، وتخاطر بمهجتك، وانظر في غير هذا.

فقال له: يا نجاح! لو سرنا في هذه الأيام لكان فاتنا حريث ودخل بليلى، وما كنت لأعيش بعدها أبدًا، ولكن هم الليلة مقيمين، وعند الصباح يرحلون، وأنا أسير بقية ليلتي إلى الفجر وأكون عند مسلمة، وأرجع به إلى طريق الجبل وأقطع عليهم الطريق، والله ولي التوفيق، فلو أن معي مائة فارس التقيت الخمس آلاف، وخلصت ليلى، ولا أخاف، ولكن سر أنت معهم بحيث لا يخفى عليك شيء من أمرهم، وإن دخلوا على طريق غير الجبل، فاتركهم وأقم هناك

حتى ألحق بك، ولا تقرب هودج ليلى ولا تعرفها بنفسك حتى أعود إليك إن شاء الله تعالى.

ثم ركب مزنة وسار يقطع البر وهو يود لو كان له أجنحة وطار، فقطع البطاح حتى أصبح الصباح، ووصل إى العسكر من بعد الجد والجهد.

فلما شاهدوه اجتمعت الناس في خدمته واعتنقه مسلمة وسأله عن حاله وسرعة عودته.

فانفرد به عن الرجال وحكى له جميع الأحوال.

وقال مسلمة: هذا من تمام الأحوال بالسعادة وبلوغ الآمال، لو تأخرت لسبقك هذا الملعون إلى ليلى، وأضرم في قلبك الحريق، والآن ماذا تريد أن تصنع؟

فقال : يا مولاي! نسير على الطريق الأخرى نحو بني كندة، ونسبقهم على الكحيل، فلا بد لهم من تلك الطريق ونضع فيهم السيف الرقيق.

فقال مسلمة: أيها الأمير! أنت اليوم ملك العرب، وهم يلتجؤون إليك، ولا ينبغي أن ترمي نفسك في المهالك، وتخاطر بمهجتك في أضيق المسالك، وإن كان هؤلاء القوم الذين قدموا على هذا الأمر اعترفوا بذنبهم واعتذروا خوفًا من عتبهم فبالإحسان نعاملهم لأن العفو بالملوك أجمل، والتجاوز بالقادرين أفضل.

فقال الصحصاح: ما أشرت إلا بالصواب، ولكن في القلب نار الالتهاب.

ثم ركب ظهر مزنة، وعرج على تلك الطريق، وسار إلى الموضع الذي ذكرنا، ودموعه تنحدر على وجناته، وهو يتنفس من نيران زفراته.

فأنكر مسلمة حاله وعذره، وقدم بين يديه دليلاً وقال له: يا ملك العرب! ارفق بنفسك فلا بأس عليك إن شاء الله تعالى، ولا شك أنك تصل إلى مطلوبك.

فقال : يا مولاي، المحب مولع بسوء الظن، وأخاف أن يسبقني إلى حلته من وقته وساعتها يموت عبدك الصحصاح من غيرته، وتزيد بلوته.

ثم أعاد عليه حديث غانم من أوله إلى آخره، فتعجب مسلمة من ذلك وقال: يحق له والله أن يبذل نفسه في هواك ولا يصل أحد لمجازاتك بذلك.

ثم ساروا مجدين إلى أن أشرفوا آخر النهار على الجبل، فنزلوا على الماء فلم يروا للقوم عليه أثر ولا لاح لهم خبر.

فعلم الصحصاح أنه قد سبقهم ففرح بذلك فرحًا عظيمًا، وشكر الله وأثنى عليه بما هو أهله، وعلم أنه قد وصل إلى سؤاله وبلغ مأموله.

فأمر الناس بالنزول، ونصب الناس الخيام، وركزت الأعلام وامتلأت بهم الأرض في طولها والعرض؛ لأنهم زهاء خمسة عشرة ألف فارس ومثلهم أتباع وغلمان وخدم والكل في خدمة الصحصاح وتحت يده.

فلما استقر بهم المكان حتى طلع عليهم غبار بني كندة وسمعوا صهيل الخيل فقال مسلمة: هؤلاء بنو كندة فأظهروا لهم التجمل، فنادى المنادي في الناس بأخذ الأهبة وإظهار الزينة ففعلوا ذلك.

ثم إن الأمير مسلمة أمر أربعين خادمًا أن يأخذ كل واحد منهم في يده علمًا منسوجًا بالذهب ومكتوب عليه «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وقال لهم: إذا وصلتم إلى بني كندة فقولوا لهم: إن الأمير مسلمة ابن أمير المؤمنين وولي عهده في العالمين يأمركم بالترجل والسعي إلى خدمة ملك العرب.

فقصدتهم الخدم وعليهم تلك النعم وساروا نحو بني كندة، فلما رأت بنو كندة ذلك كادت قلوبهم أن تذوب لأنهم رأوا عشرة آلاف فارس ومثلهم معهم، وقد صاحوا: يا ويلكم! ترجلوا إلى خدمة ملك العرب وسيد من بعد منها واقترب، ونادوا: السمع والطاعة للك ولملك العرب أدام الله تعالى دولته ببقاء مولانا أمير المؤمنين وخليفة المسلمين.

وصار الكل خاضعين وفي أوائلهم حريث وقد طار عقله خوفًا وجزعًا هنالك خرجت من الخيام ثلاثة آلاف نفس وترجلت الركاب وهم اثنى عشر ألف فارس وكانت بنو كندة خمسة آلاف نفس فصار مع كل واحد منهم ثلاثة أبطال، وأوثقوهم بالحبال، وقد أيقنوا بالذل والوبال فعندها أقبل حريث عليهم أي على قومه وقال لهم: يا بني عمي! ما هذا المعسكر، لقد تعبنا من هلاك النفوس هذا شيء حير العقول.

وقد أمر مسلمة الخدم فرجعوا إلى هودج ليلى وساقوا البعير سوقًا رفيقًا وهم ينادون: يا ملكة العرب! سعد سعدك وعلا مجد.

هذا وليلى قد ذهب عقلها وحارت من هذا العسكر في أمرها، ولما نظرت إلى الخدم الذين ساقوا البعير ظنت أنه ملك العرب ابن الهيثم يكون قد بلغه حسنها وجمالها وقد أتى ومراده يأخذه من بني كندة وأخذها وأنقذة من تلك

الشدة، ففرحت بذلك فرحًا شديدة.

وزادت بها الحسرة وتفكرت وهي تقول: يا صحصاح مالي أرى وجهك في الوجوه الملاك، أترى أنت بين الأحياء يرجوك أو بين الأموات، ثم بكت بكاء شديدًا.

وكان الصحصاح قد بعث عبده نجاح ليسكن روعها ويهدئ قلبها، فلما رآها ناداها: يا سيدة العرب ذهب البكاء والحزن والشقاء والمحن.

فنظرت ليلى إلى المتكلم فإذا هو نجاح!

فصاحت وقالت: يا نجاح قلي ما وراءك؟

فقال لها: يا مولاتي ما هذا وقت الكلام، امضي إلى سرادق الصحصاح.

ثم إنه مشى أمامها إلى أن وصلوا إلى سرادق الصحصاح.

فلما وصلت إلى المضرب الذي فيه الصحصاح أناخوا الجمل وتقدمت الخدم وأنزلوها من الهودج.

فلما صارت على الأرض والعبيد من حولها رفعوا ألسنتهم بالدعاء لها وهي حائرة، وتظن أنها في منام وأضغاث أحلام، ودخلت إلى سدرة ما تصلح إلا للخلفاء تقصر عن وصفها ألسنة الواصفين.

فلما استقر بها الجلوس وهي ما تظن إلا أنها قد حملت إلى مروان بن الهيثم لعلمها أن الصحصاح لا يقدر على مثل هذا أبدًا وحزنها شديد وغرامها يزيد.

فبينما هي على ذلك الحال وإذا هي بالصحصاح قد عبر من باب السرادق وليلى ترتعد وتقول: ويلاه من الفضحية ترى مروان بن الهيثم يأخذني سفاحًا، فلا والله لو كان الصحصاح حاضرًا لم يكن عليه قادرًا.

هذا والصحصاح رفع باب الخيمة الذي في صدر السرادق الكبير ورفعت ليلى رأسها وأبصرت الداخل عليها وإذا هو الصحصاح، وهو يقول: يا ليلى قد وصلتك سالمًا غانمًا وسيكون سرورًا واردًا.

فلما سمعت كلمته وتحققته صرخت صرخة عالية وقد غابت عن الوجود ووقعت على الأرض على وجهها.

فجلس الصحصاح عند رأسها وتحير وبكى وليلى قد غابت في غشوتها إلى الصباح، وعرفوا الخدم ذلك فذهبوا إلى مسلمة وأخبروه بما وقع.

ثم إنها أفاقت وجعل الصحصاح يناديها: يا ابنة العم ذهب الهم والغم إني أنا الصحصاح بن جندبة...

فعند ذلك جلست وهي عادمة العقل تنظر إليه وتشك حتى تحققت وتيقنت أنه الصحصاح، فبكت.

فبكى الصحصاح لبكائها، وجعل يصف إليها حاله، وما قد جرى له ويسألها عن أبيها عطاف، وعن أمه وأهل قبيلته فأعادت عليه حديثهم وأطلعته على جلية الحال، وكيف زوجها أبيها إلى حريث بعد أن أسره وقد أشرف على الهلاك هو وقومه.

وما زال يتحدث مع ليلى إلى أن أصبح الله بالصباح، فصلى الصبح.

فتعجب مسلمة من كمال عفته مع شدة محبته.

ثم إن الصحصاح قصد إلى مسلمة فقام مسلمة وهنأه ببلوغ الأمل وجمل الشمل.

ثم أمر الأمير مسلمة فركب وركب الصحصاح وقد أحدقت به المواكب والكتايب وأمر أن يقدم البعير والهودج فألبسه الحلل والرصافيات التي لهودج الملكة مروة بنت عبد الملك بن مروان، وركبت ليلى وقد نظرت إليها الجواري باهتمام، فلما نظرت ليلى إلى ذلك قالت: اللهم لك الحمد من قبل ومن بعد.

فسار الناس على مهل لأنهم قد تعبوا من المسير الأول، فساروا مقدار أربعة فراسخ، وإذا بغبار قد ثار حتى سد الأقطار، فقال مسلمة لما رأى الغبار وقد تحير : إيش هذا الغبار؟

فقال الصحصاح: لا شك أن حريثًا قد استنجد ببعض العرب، ولو عرفنا كنا سقينا كأس العطب.

فقال مسلمة: ما أظن أحدًا يتقدم إلى هذا العمل لأجل ثلاث وجوه:

الأول: أن معنا خمسة عشر ألف فارس ويبتعها مثل ذلك.

والثاني: لهيبة أمير المؤمنين.

والثالث: قد سمعوا أني كنت معك وجئت وإياك، وقد عرفوا أن الشجاعة معك!

فقال الصحصاح: هذا لا يصح إلا لأرباب العقول، وأما عرب الحجاز لا

يفكروا في عاقبة الأمور، بل يرمون أنفسهم في كل نائبة، ولا يعرفون من هو أمير المؤمنين، وهذا من قلة عقولهم!

فقال مسلمة: وربما يكون مروان بن الهيثم حين سمع بعزله وولايتك جاء لخدمتك ليكون في صحبتك وذلك طاعة لأمير المؤمنين يريد بذلك حسن الظن في حقه.

وكان السبب في ذلك أن الأمير جفال سيد بني مخزية والمقدم على ملوكها وكبراءها لما جرى حديث مروة لم يكن حاضرًا في حلته، بل كان غائبًا، وكان لغيبته سبب نحب أن نذكره.

وذلك أن بني مخزية كانت عشرة حلل وفي كل حلة منهم أمير، وكان الجميع كلهم تحت يد جفال، وكان فارسًا لا يطاق، وعلقمًا مر المذاق، وكان صديقًا للملك فاتك بن معدي ملك اليمن.

فخطب جفال بنت فاتك فأجابه إلى ذلك، وحمل جفال الأموال والنوق والجمال، وسار في خمسة آلاف فارس إلى أن وصل إلى أرض اليمن، ووصل خبره إلى فاتك فاستقبله وأكرمه غاية الإكرام، وأقام عنده شهرًا كاملاً ثم زف ابنته عليه وأقام عنده سبعة أيام.

وطلب من فاتك الرجوع إلى دياره، فشق ذلك على فاتك، فحلف قسمًا بالله لأمكنتك من الرحيل إى سنة كاملة أنت ومن معك.

فلم يجد سبيلاً إلى الخلاف لفاتك لأن فاتك كان في الكرم.

وكان اليمن كله تحت يده إلى أطراف البحار والجبال، فأقام جفال ومن معه في أطيب عيش وإنعام وأطيب مقام، وفي كل يوم يتجدد عليه الخير والإنعام.

وفي أعقاب السنة وصلت إليه الأخبار بما جرى لبني مخزية من القتل والسبي، وما صنع بهم مروان بن الهيثم.

فقامت على جفال القيامة وبكى على قومه فقال له فاتك: اصبر أيها الأمير فإن الأشياء بقضاء الله وقدرته.

فقال الأمير جفال: لا صبر لي على ذلك الأمر المنكر، ولا بد لي أن أرمي روحي على بني سليم، وأقتل مروان بن الهيثم فهو الذي فعل هذه الفعال، وبعد أخذ قومي أغزو على بلاد الشام، وأحرم مروان أن ينام، وأجمع العرب وأعطيهم الفضة والذهب، ولهم الأموال ولي سفك الدماء.

فقال له فاتك: اصبر وتمهل فإن العجلة ترث الزلل، وأما أنك تجمع العرب فلا حاجة إلى ذلك لأن تحت يدي مائة ألف عنان، ولي عبد يقال له «عملاق» لو عاين عنتر بن شداد جلعه له غلام، وأنا أقدم عليهم عملاق وآمرهم بالمسير تحت طاعتك، وتأخذ الثأر من قصد حلتك.

وإن عزمت على المسير إلى بلاد الشام فإني أمدك برجال يكون أولهم في الشام وآخرهم في بلاد اليمن!.

واجتمعت بنو مخزية من سائر الأقطار وساروا طالبين اليمن إلى أميرهم جفال.

فلما وصلوا إليه وقع البكاء والنحيب على من قتل منهم وأخبروا جفال بجلية الحال وحديث مروة ابنة عبد الملك بن مروان، فعظم عليه ودخل على فاتك وقال له: أعطني الإذن بالذهاب إلى حلتي فعندها علم فاتك ما في نفسه، فإذن لجنده أن يتفرقوا في سائر بلاد اليمن، ويسترجوا له الأبطال المعدين للقتال.

فلم يكن معه إلا القليل حتى حضر أمامه أربعون ألف مدرع وقدم عليهم عبد له يقال «عملاق» وكان كأنه من أولاد الجبابره، وهو أطعن أهل زمانه بالرمح وأضربهم بالسيف، وكان جبارًا عيندًا وشيطانًا مريدًا، وهو جسور على قتل الشجعان.

وسار عملاق وجفال من أرض اليمن وقد أرادوا نهب أموال ملك العرب مروان بن الهيثم وتبعهم خلق كثير من الطماعين مثل عددهم أضعاف، ونظر جفال إلى ذلك فأقسم أن لابد من المسير إلى دمشق.

وجد في سيره ليلاً ونهارًا طالبًا بني سليم، فوقعت في طريقهم على بني كندة فلقيهم حريث في جشيه وهو متهزم فلم يشعر إلا وقد أحاطبت به الكتائب من كل جانب، فقال مزاح: ما رأيت سفرة أكبر من هذه السفرة ولا عروسًا أجمل من هذه العروس، وهذه النوبة ما فيها إلا هلاك النفوس.

ثم أقبل مزاح على حريث وقال له: العزوبية قتلتك حتى أوقعتنا في هذ البلية.

فقال له حريث: ويلك خلينا من هذا المزاح في هذا الوقت.

فهم في الكلام، وإذا بالرجال قد أحدقت بهم من كل مكان، ثم قالوا: من أين أنتم؟ ومن أي العرب تكونون، وإلى أين أنتم طالبون؟

فقال حريث وقد راعه ذلك العسكر العظيم: ما هذا إلا يومًا عبوسًا، ثم تقدم إلى أميرهم فعرفه وعرف جفال أمير بني مخزية، فرمى نفسه بين يديه، وقال: يعز علينا ما جرى أيها الأمير على قومك، وما كان هذا إلا لغيبتك، فالحمد لله الذي نظرت إلى طلعتك، ولو كنت حاضرًا كنت أول من بادر إلى معونتك، وأنا خادمك حريث.

فقال له : أبوك كان لي صديقًا. فقل لي عندك خبر من ملك العرب مروان بن الهيثم، فإن في قلبي منه نار وأريد أن آخذ منه الثأر.

فلما سمع حريث منه ذلك قال له: يا ملك و مروان بن الهيثم عظم عليه الهم، وظهر لنا من هو أعظم منه همة وهو الصحصاح بن جندبة الكلابي، ومعه من الأموال ما قد شد الفضاء ومعه مسلمة بن عبد الملك بن مروان، وهو الذي أباح دماء بني مخزية، وعزل مروان بن الهيثم، وقد الصحصاح، وبئس ما قدم، فأدركه قبل أن يصل إلى بني كلاب ويملك الإمارة على العرب.

فقال جفال: وا برداه على كبدي مما أصنع به أيها الأمير! وأي وقت أجتمع وإياه ورأيك ما أصنع به؟

فقال له حريث: يقبل عليك نصف الليل بما معه من الأموال والتحف.

فلما سمع جفال ذلك الكلام قال: هلموا واقصدوا بنا نحو الغريم.

فقال حريث : اطلبهم قبل أن يصلوا إلى حلة بني كلاب.

فقال الشيخ مزاح: نعم، يقا قرنان لأجل لا تفوتك العروس، وتظن أن الصحصاح قنع بالأموال، وإنما من نصف الليل تمتع الصحصاح بالعروس، ومن تلك الساعة قد ملك الحصون، ولا تظن أن العروس قاعد ملك، وأنه دخل عليها، ومن موضعه ما برح، غير أنه اصطبح بالعروس، وإن كان الشوق غره، وقد برح فارجع معهم فإنك تربح.

قال جفال لحريث: إيش معنى هذا الكلام؟

قال له: هذا شيخ أحمق، ثم أعاد القصة من أولها إلى آخرها عليه.

فقال له جفال: أبشر يا حريث فإنها مردودة أي ليلى إليك، وكل ما وصل إليها من الصحصاح فهو لك.

فقبل حريث الأرض وبكى، وتعلى بركاب جفال، فأعطاه يده على ذلك.

وكان عملاق قد سمع بكاءه فنادها بصوت مثل دوي الرعد القاصف: يا هذا خلِّ عنك البكاء، فإني أرد ليلى إليك.

هنالك تقدم حريث وقبل قدم العملاق في الركاب، وقد طار عقله من الفرح وقال: ما للصحصاح إلا هذا البطل.

وتقدم الأبطال وحريث يظن أنه قد بلغ المراد وأما الشيخ مزاح فإنه قد أقبل على حريث وقال له: اعلم يا مولاي أني شيخ كبير، وما بقي لي جلد على القتال، وقد عولت أن أمضي إلى الحي وأطيب قلوب الناس لأنك قد أبطأت عن الحلة، ولا يعلمون ما كان منك وأنا ذاهب أعلمهم بصحة السلامة، وسوف تعود إليك الغنيمة.

فقال له حريث: لا وذمة العرب، لا خليتك ترجع حتى تنظر ما أصنع بالصحصاح ومسلمة، ولو كان عبد الملك بن مروان حاضرًا فيهم لحل به الذل والهوان.

قال: فلم يقدر مزاح على مخالفة حريث.

ثم ساروا إلى وقت العصر، فلما كان وقت العصر أشرفوا على عسكر الأمير مسلمة بن عبد الملك بن مروان كما ذكرنا هنالك صاح حريث وصاحت بني مخزية: يا لثارات الغضبان شوم الزمان.

فعند ذلك ارتجت الأرض وأوترت القسي واعتدلت السهام، واقتربت الحمام، وصاح الفريقان.

وأبصر مسلمة ذلك العسكر وهم خمسة وأربعين ألف مدرع ولابس، وقال: يا ملك العرب ما أظن هؤلاء القوم يعرفونا.

فقال الصحصاح: أن أقول إنهم من بني مخزية، وقد كان ملكهم تزوج في بلاد اليمن، وإنه وصل إليه ما جرى على قومه وأظن أن فاتك ملك اليمن قد أنجده بهذا العسكر وأيضًا الأمير جفال موصوف عند الشجعان، وقد كان عبدي نجاح يقول: يا مولاي ما لك شبيه إلا جفال بني مخزية، وأنا أشتهي أن ألتقي وإياه.

فقال مسلمة: اعلم يا صحصاح أنه لا يحل لنا أن نقتل من يقول لا إله إلا الله إلا بعد الإنذار.

فقال الصحصاح: الأمر لك ولكن ما عندي غير الحملة عليهم.

ثم إن مسلمة أرسل إليهم رجلاً من أهل الشام يقال له الصامت مجاهد، وكان مؤدبًا بالزمان يصلح للرسائل والإنذار بين القبائل، وقال له: اذهب إلى هؤلاء وقل لهم: إن هذا ولي عهد أمير المؤمنين وإلى أين تريدون؟ أخبرونا وأوجزونا، فإن معي قوم من عسكر أمير المؤمنين لا يخافون من كثرة الأمم كما لا يخاف الذئب من الغنم، فبادوا إليه بالطاعة أحب إليكم من الهلاك، وإن أنتم أبيتم فدونكم والقتال.

قال: فمضى الرسول وأعاد ما سمعه عليهم، وكان المخاطب له جفال.

فصاح عليه بعد أن سمع الكلام وقال له: لولا أنك رسول لقطعت رأسك بهذا السيف، ارجع إلى مسلمة وقل له: إن كان أبوك حلف أنه ما يترك من بني مخزية أحدًا فأنا أقسم بذمة العرب والرب الذي طلب كل عباد غلب، لا تركت من بني أمية أحد، ومن بعده صاح حريث وقال له: ويلكم أنتم ظننتم أنكم تخرجون إلى أرض الحجاز سالمين لا ورب العالمين.

ورجع الرسول إلى الأمير مسلمة وأخبره فغضب وأمر بضرب طبول الحرب، ونعر البوقات.

فصاح عملاق وجفال واشتد القتال بالسيف طول النهار وما فصل إلا الظلام.

هذا وقد طمعت العرب، وكان الصحصاح قد قاتل قتالاً يقصر عن وصفه اللسان.

فلما نظر مسلمة إلى ذلك عظم عليه وكبر لديه وقال: يا ملك العرب إن

هذا عسكر كبير، ونحن في أرض الحجاز، وسوف يأتي إلينا كل قاطع طريق فنحتاج أن ترسل عبدك نجاح إلى حي بني كلاب يأتي بهم إلينا يكون ذلك أصوب.

فقال الصحصاح: أيها الأمير سوف ترى في غداة غد ما يسرك إن شاء الله تعالى، ولا تحتاج إلى بني كلاب ولا إلى غيرهم.

ولما أصبح الصباح واصطفت الصفوف وترتبت المئات والألوف ولمعت السيوف، وإذا بفارس ظهر بين الصفين، ولعب بالرمح بين الفريقين، وكان عليه درع مضايق العدد ونادى: أنا الصحصاح بن جندبة ملك العرب ومن حوى الرتب.

هنالك برز حفال وقد زال عنه السعد وأتاه الوبال وهو على جواد عالٍ من الخيل الجياد.

فحمل عليه الصحصاح فكانا كأنهما أسدين، ولم يزالا في قتال ونزل حتى حارت عقول أولي الألباب من الشيوخ والشباب.

فاختلفت بينهما ضربتان قاطعتان صائبتان كان السابق بالطعنة جفال فوثب الصحصاح فصار على وجه الأرض وضيع الطعنة بالعرض.

ثم وثب إلى حصانه، وطعن جفال في صدره أطلع الرمح يلح من ظهره.

هنالك صاحت الأبطال، وجرى الدم وسال.

ولما نظرت بنو مخزية إلى أميرهم وقد وقع على وجه الصحصاح أطلقت

الأعنة، وحملته، فعندها أشار مسلمة إلى عسكره فحملت وتواثب الشجعان وجرى الدم وسال.

ثم خرج العملاق، وصاح في حصانه، فخرج من تحته كالبرق الخاطف.

فقال له الصحصاح: ويلك! فقد طلبت الممات، ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه.

وإذا بغبار قد انكشف وخرج من تحته جواده وصاحبه قد وقع، وهو كأنه نخلة انحدرت من الجبال، وإذا بالصحصاح قد خرج على مزنة وهو مبتسم وسيفه يقطر دمًا، وإذا بالعملاق على الأرض مقتولاً.

فلما نظر مسلمة إلى عملاق فرح فرحًا شديدًا، وأمر بالحملة فحملوا فهذا ما كان من هؤلاء.

وأما ما كان من المزاح فإنه أتى إلى حريث وقال له: يا قرنان، ويلك وقد صارت ليلى أرملة إن كنت تريد أن تخطبها فقم إليها.

وإن العرب لما قتل عملاق وعامر الملقب بجفال بقيت مثل الغنم بلا راعٍ فولوا الأدبار، وانهزم حريث مع بني كندة، والمزاح يقول لحريث: امهل يا قرنان فلا زلت تطمع في ليلى حتى تهلكنا، وتهلك هذا العسكر.

فضحك حريث من الغم الذي هو فيه وهو ماشٍ عريان هو وأصحابه.

وأما ما كان من ملك العرب الصحصاح فإنه لما نصره الله على عملاق وجفال، وانهزمت العريان إلى كل مكان وغنم الناس أموالهم وجميع ما كان لهم،

وعظم الصحصاح في عين مسلمة فقال له: حقيق لقد ملكت العرب بسيفك وشجاعتك.

فقال الصحصاح: هذه كله بموالاتك لي في الابتداء، فلا عدمتك من صديق.

وأما أم الصحصاح فإنها كانت كثيرة البكاء، وقد أيست من الحياة، فلم تكن تعلم بنصر ولدها بعد.

فبينما بني كلاب على غفلة منهم إذا وصل الخدم والغلمان والحجاب فنصبوا الخيام والقباب، فتبادرت الشيوخ منهم وقالوا: حيا الله الأمراء والسادات الكرام.

فصاحت الغلمان عليهم: يا ويلكم ما أعمى قلوبكم! أما وصلت إليكم الأخبار بأن ملك العرب شرقًا وغربًا الصحصاح بن جندبة بن الحارث الكلابي قد أتى إليكم.

فلما سمع بنو كلاب ذلك تحيروا ورجعوا إلى عطاف وأخبروه بما سمعوه.

فقال لهم: يا ويلكم لعل الاسم يكون قد وافق اسمه اسم الصحصاح بن جندبة، فلو كان حيًا ما طمع أحد فينا فوا أسفاه على الصحصاح!

ثم رجعوا إليهم وقالوا لهم: كيف نزل ملك العرب في هذه الحلة وكيف قصدها من دون الحلل؟

فقال الخدم: يا ويلكم ألم نقل لكم إنه الصحصاح بن جندبة الكلابي، وقد



أتى ابن الخليفة أمير المؤمنين في خدمته ليحضر عرس ابنة عمه ليلى.

فلما سمعوا ذلك رجعوا وهم مستبشرين، وقالوا: لقد عاد الملك في بني كلاب دون غيرهم من الأعراب.

فلما أخبروا عطافًا بذلك قبل الأرض شكرًا لله تعالى، إلا أنه تغير وقال لقومه: كيف تكون حالة الصحصاح إذا سألنا عن زوجته وابنة عمه ليلى وكيف نرد جوابه إذا سألنا؟ نقول له إننا زوجناها ومن الحي أخرجناها!!

فقال له الخدم: إنه لقيها في طريقه وخلصها وأخذها من حريث، وأعادوا عليه القصة من أولها إلى آخرها، فوقع مغشيًا عليه، ثم أفاق وقد انشرح صدره.

وادي الذئب وشيطان الإنس

فعند ذلك جمع مروان بن الهيثم من يعتمد عليه وهم ثلاثون ألف فارس وضم إليهم شيطان الإنس وجماعة من بني سليم.

ثم إنه سار إلى أن قربوا من أرض بني كلاب فكمن بهم هناك.

وكان الصحصاح مشغولاً بالأكل والشرب والفرح مع ابنة عمه في طول ليله، والنهار كله مع مسلمة وقد انبسطت له الدنيا وصفت.

فبينما هو كذلك إذ دخل عليه عبده نجاح وذكر أنه جاء جاسوس إليَّ وقال لي: إن مروان قد أضمر قتلك وفي نفسه الغدر والشر.

فلما سمع الصحصاح من عبده نجاح ذلك دخل على الأمير مسلمة وقال له: يا مولاي! لي إليك حاجة!

قال: وما هي؟

قال: سوف أغيب عنك ليلة واحدة؟

فقال له مسلمة: ولم ذلك يا أخي، إنني ما آمن عليك في أمر من الأمور إلا أن أكون معك بنفسي أفديك.

فقبل الصحصاح الأرض وقال: لا تخش عليَّ من هذا الأمر إن شاء الله.

ثم إن صبر إلى أول الليل، وخرج من ظاهر البيوت وركب هو ونجاح جوادين سابقين وساروا يقطعان الأرض إلى تلك الموضع الذي نزل في شيطان الإنس هناك.

فلما خرجوا وساروا قال نجاح لمولاه: هل تريد أن ترمي نفسك في هذا الجيش؟

قال: لا، ولكن في قلبي من هذا الشيطان حسرة عظيمة، وقد سمعت أنه لا يأكل إلا من صيده وزكثر رميه السباع، ولا بد من الخروج في هذه الليلة يطلب سبع يقتنصه؛ لأن السباع تدنو في الليل على ضجة الجند، ولا بد لي من ملاقاته.

فقال له نجاح: يا مولاي المخاطرة مذمومة!

فلما سمع الصحصاح ذلك قال: أقصر يا نجاح.

وقعدا إلى أن طلع الفجر واسيتقظا، وإذا هم بفارس قد ظهر وقدامه عبد وهما يتحدثان: لابد من قتل الصحصاح ومسلمة وتسليم الملك إلى مروان بن الهيثم.

فلما سمع الصحصاح ذلك علم أنه مطلوبه فقال لنجاح: اتبعه حتى يبعد عن العسكر.

فلم يزل نجاح يتبعه إلى أن نزل إلى وادي الذئب هنالك خرج الصحصاح

وقال: اخلع ثيابك يا وجه العرب وسلم حصانك.

فضحك شيطان الإنس ثم حمل عليه فتطاعنا حتى شهد كل واحد منهما لصاحب بالفروسية، وعرف موقع مضاربه، وكان القمر في وسط السماء، وقد سار الليل والنهار سواء، فصار الملعون يصيح كأنه الجمل الهائج وصرخ على الصحصاح صرخة عظيمة نفر منها تجاح، ولم يبق إلا هو والصحصاح!

ودخل في الحرب والكفاح فيا لا من ساعة، وقد هز شيطان الإنس الرمح في يده وضرب الصحصاح في صدره فالتقاها بالترس وبطلها.

فضربه اصحصاح بعقب الرمح في صدره وألقاه على ظهره ونزل وأوثقه.

ورجع به الصحصاح إلى مسلمة، فنهض له قائمًا وقال له: يا ملك ! أين كنت؟

فقال الصحصاح: كنت قد سمعت بحديث شيطان الإنس وأنه شيطان لا يطاق وعلقمًا مر المذاق.

فقال له مسلمة: وما الذي فعلت في ليلتك هذه؟

فأعاد عليه ما جرى وأنه أتى به أسيرًا، وقاده ذليلاً حقيرًا.

فقال الصحصاح: لابد أن يصل مروان بن الهيثم هذه الليلة ويدخل علينا فينظر إلى شيطان الإنس وهو مقيد بين الكلاب ومرمي بين الأطناب، فيكون ذلك وبالاً عليه.

فقال مسلمة: للك درك يا صحصاح، إن الثلاثين ألفًا الذين في الكمين إذا

فقدوا المقدم عليهم بقوا مثل الغنم بلا راعٍ، وإن مروان بن الهيثم إذا رأى هذا الشيطان يخشى أن يفعل به مثله.

وشدوا في رقبة شيطان الإنس كلب مثل الأسد الضرغام فصار الكلب ينهش بأظافره ويهمز عليه وكلما تحرك نهشه وهو يعاين البلاء ولا يعرف الفارس الذي أسره!

ولما أن تم للصحاح أمره وانتصر على غريمه قام الأمير مسلمة قائمًا وضمه إلى صدره وعانقه وقبل ما بين عينيه، وقال: لا فض الله فاك يا ملك العرب، ولقد كملت فيك الفصاحة والبلاغة، ويجب عليمك أن تأن لي بالمسير لأنني والله ما أنا راحل عنك بإرادتي بل خوفًا على قلب أمير المؤمنين.

فبكى الصحصاح وقال له: يا مولايَ افعل ما بدا لك.

وأمر الأمير مسلمة أن يكتب جميع الوقائع وما حصل للصحصاح في الطريق والإقامة حتى يعرض الجميع على أمير المؤمنين، وكان غرضه من ذلك أن يرى أمير المؤمني شجاعة الصحصاح.

ورحل الأمير طالبًا بلاد الشام، وسار معه ملك العرب، وأقسم الأمير مسلمة على الصحصاح بالرجوع إلى طريقه، وهو يود أن لا يفارقه صاحبه ورفيقه.

العمدة في كل نائبة!!

وأقام ملك العرب في ملكه ودانت له القبائل وجاءته العشائر وكانت كل الأمراء والسلاطين يأتون إلى خدمته، ولا يخرجون عن طاعته.

وقد خرج يومًا إلى الصيد والقنص ومعه خواص دولته إلى البرية وطاب لهم الصيد لكثرة الوحوش.

فبينما هم كذلك وإذا بفارس قد ظهر من جهة بلاد الشام، ولما رآه الصحصاح بادر إليه وقال له: ويحك من أين أقبلت.

فلما رآه النجاب عرفه فقبل الأرض بين يديه وقال له: يا مولاي! أنا من عند أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، وقد تيت إليك بهذا الكتاب، فانظره واعمل بما فيه، ودعني أعود لأني من أمري على عجل.

فأخذ منه الكتاب وقبله وفضه وقرأه وإذا في أوله:

«بسم الله الرحمن الرحيم، حين وقوفك على هذا الكتاب لا يكون لك جواب إلا وضع رجلك في الركاب ولا تترك في أرض الحجاز من يركب جوادًا إلا ويأتي صبحتك لأمر لا بد من وقوفك عليه عن حضورك والسلام».

فلما قرأ الكتاب قبل الأرض وقال: سمعًا وطاعة لله ولأمير المؤمنين.

ثم رجع إلى حلته ودخل على أهل قبيلته وكتب إلى سائر الجهات من وقته وساعته.

فقدمت عليه المواكب والسادات والأقران من سائر البلدان، حتى سار في مائة وعشرين ألف فارس.

ودخل ملك العرب على ابنة عمه وودعها وَكانت حاملاً وقد بقي لولادتها أيام قلائل وسارت القبائل والجحافل ومروان بين أيديهم في ثلاثين ألف فارس والأمير غانم بن زاهر وأتوا إليه من المشارق والمغارب، وجدوا في السير إلى أن وصلوا إلى دمشق الشام.

فبعث الملك الصحصاح إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فأمر أن يخرج الجميع من أهل دمشق إلى لقائه، ولم يكن هناك أحد من أهل دمشق إلا وهو مشتاق لرؤيته.

ولما أن أتى دمشق، ورأى عساكر الخليفة خارج البلد، فتعجب من كثرتهم وهم خلق لا يحصي عددهم إلا الله تعالى.

وبقي الصحصاح حائرًا لا يدري ما السبب في جمع هذه العساكر.

فبينما هو كذلك إذ دخل عليه الأمير مسلمة والخدم بين يديه.

فقام إليه وتلقاه من الباب وقبله في صدره ثم جلسا للحديث.

فقال له الملك الصحصاح: يا مولاي! إني أرى هذه العساكر قد اجتمعت بخلاف ما أعهده، ورأيت أمير المؤمنين ظاهر عليه الغم.

فقال: نعم، وهو بسبب وصول كتاب من أحد الأقاليم.

ثم دخل الصحصاح علي الخليفة وأخذ الخليفة يباسطه في الكلام، فقال الخليفة: يا ملك العرب! اعلم أني ما أكتم عنك شيئًا لأنك أنت العمدة في كل نائبة وشدة، وأنا أعلم أني مسؤول عن أمور المسلمين وواقف غدًا بين يدي رب العالمين، وإني قد وقعت في أمر عظيم، وخطب جسيم، قد بلغني أن كلب الروم خرج إلى الثغور التي للمسلمين وفعل فيه فعل الطاغين، وقتل العباد وخرب البلاد، ولا يرده خوف ولا فزع، وقيل إنه خرب المساجد وعمر البيع، وصار ينفذ من عنده تشن الغارات.

ولما سمع الصحصاح منه هذا الكلام قال: يا أمير المؤمنين، أقسم بحق من رفع السماء وبط الأرض، لئن بعثت عبدك إلى بلاد الكفار لأوقعن بيهم البوار، وأبيد منهم الكبار والصغار.

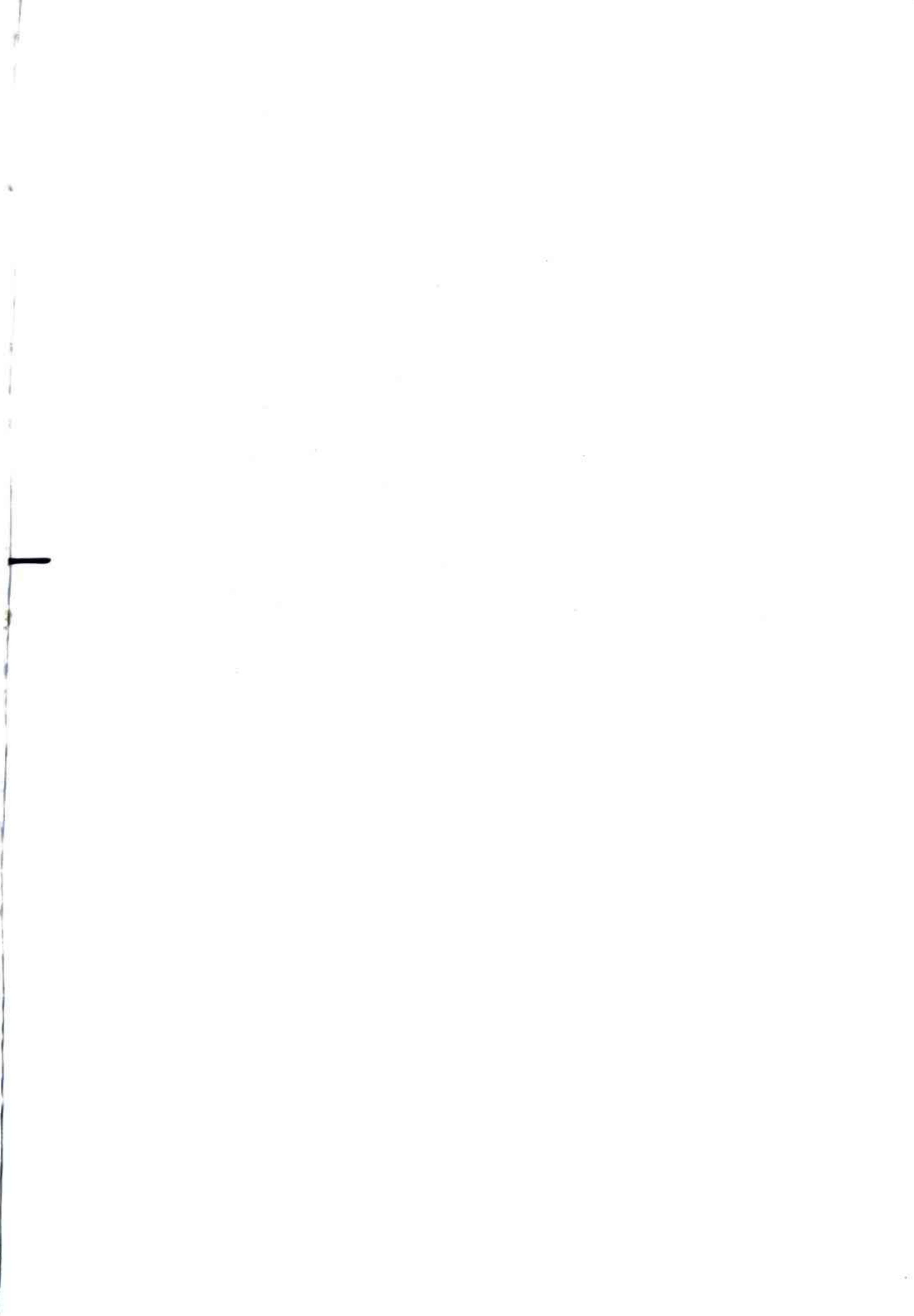
ولما سمع الخليفة منه ذلك تهلل وجهه بالسرور والاستبشار وأيقن بالنصر على يد ذلك الفارس الكرار، وقال له: أنت المعدود للنائبات والأخطار.

ونادى الخليفة على الصحصاح ليصعد المنبر وقال: معاشر المسلمين

هذا أمير جيوش الموحدين وحامي بسيفه بيت رب العالمين، وهو سيفنا القاطع، ثم وضع يده في يد ولده مسلمة، وأصاهما ببعضهما ودعا لهما بالنصر.



فهرس الكتاب



إصدارات مكتبة النافذة
من السير الشعبية

سيف بن ذي يزن
تغريبة بني هلال
السيرة الهلالية
سيرة العرب الحجازية
سيرة عنترة بن شداد
سيرة علي الزيبق
الزير سالم
الشاهنامه ملحمة فارس الكبرى
الأميرة ذات الهمة
فيروز شاه
قيس وليلى
مغامرات حمزة العرب

مكتبة النافذة